صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق ص ب (٢٥٧٠) هاتف ١٦٢٩١

العدد الثاني عشر
(مايس) ١٩٥٩
السنة الاولى

تغريدة القروي

في يوم تكريمه

حتى م تحسبها أضغاث أحلام
سبح لربك وانحر أنت في الشام

لم يأذن الله يا بوق العروبة ان
تقضي الحياة غريبا بين أعجام

وكنت في أبعد الأمصار أقرب من
أهلي اليّ وأخوالي وأعمامي

اضناك طول السرى والسير ياولدي
فاطرح رداءك وامسح جرحك الدامي

هذي عيوني وجناتي وفاكهتي
فاملأ يديك وبرّد قلبك الظامي

وارتع بقلبي واسبح كالشعاعة في
عيني ونم بين أهدابي وأحلامي

* * *

يا آل جلق يا أزكى الاصول اذا
باهى السراة بأصلاب وأرحام

حسبي بكم شرفاً أني على ضعتي
كأن كل ملوك الارض خدامي

أعيت بياني وشكراني عوارفكم
يا أكرم الناس بالغتم باكرامي

كم لائم لامني في حبكم سفها
فبدل القرب حساداً بلوام

لبيت بالفرح المجنون دعوتكم
واخوتي ورفاقي دمعهم هام

يا يوم جدد في الخضر آيته
لما أطلت على بيروت أعلامي

والوحش منفغر الشدقين يرصدني
والبغي اسطوله خلفي وقدامي

أعدى علي بظهر الفلك شرذمة
ممن تضروا على فتك واجرام

لم يجدهم طول اغرائي بصحبتهم
فحاولوا حين عيل الصبر ارغامي

هموا بأخذي فثارت كل محصنة
وكل حر عريض الصدر همهام

من اخوتي السمو من أشبال ناصر من
مصر العزيزة من أرض الدم الحامي

فاد بر البغي مدحوراً وعدت الى
سربي وقلت لها يامقلتي نامي

وبت ليلي وعينُ الله تحرسني
حتى وضعت بأغلى الترب أقدامي

في اللاذقية في شط يمت الى
ربارتي بجمال جل عن ذام

في أرض قومي في الدنيا التي احتكرت
أقطارها كل آمالي وآلامي

ما الارزُ والشامُ إلا توأماً وطنٍ
وامة بالنجوم الزهر متآم

وسرت في موكب الاحرار مرتقياً
الى صلنفة من سام الى سام

ثرى الصفا بين خضراء الربى انتثرت
على بساط من الاستبرق النامي

هشت عليها الغصون الوارفات كما
هش الرعاة على قطعان أغنام

والحور يخفض للسماق هامته
كما تواضع جبار لاقزام

والريح تهمس والافنان في قلق
كأنها عاشق يصغي لنمام

مد السماط فلم اشهد سوى نجب
صيابة من لباب العرب اعلام

فرسان علم على خيل مجنحة
تغزو السماء بأوراق واقلام

فاقوا الليوث كما فاقت عرائنهم
شتان بين فراديس وآجام

وعدت ريان من ماء ومن ادب
شبعان من خبز ارواح واجسام

تغذ بي واصيحابي مطهمة
لا تستقاد بأسراج والجام

مطاطها من وعود الغرب مصطنع
وبوقها من اغاني عمها سام

ما ادلجت موهنا الا وناء بها
اطواد علم واخلاق واحلام

كواكب يهتدي الساري بصحبتهم
ويأمن الركب من ظلم واظلام

من كل ندب كنصل السيف منصلت
طلق المحيا كثغر الفجر بسام

القفر أمرع حولي من بشاشتهم
ونافست لياتي في الحسن ايامي

فلم نزل بـــين تمريض وتنخية
ولم تزل بـــين احجام واقدام
حتى بلغنا بهـا الفيحاء فارتبعت
قريرة العـــين مثلي رغم اسقامي
حيث العروبة شدت اصر وحدتها
واسلم الامر ضرغام اضرغام
حر بنى واخ حر اتم فيا
لليعرب بـــين بناء وتمـام
اذ فشت علل التفريق في بلد
داوت يد الحزم اعلالا بادغام
فالارض تياهـة العطفين راقصة
على الاهازيج في مصر وفي شام
كم قبلة لهما عبر الخضم وكم
تحية في السحاب المرسل الهامي
لنجرفن السـدود السود بينهما
بمارج من لظى مهـدود رطام
انا العروبـة لي في كل مملكة
انجيل حب ولي قرآن انعام
سل عهد شامي و بغدادي واندلسي
عن عمق فلسفتي عن عدل احكامي
ما اخضوضر الشرق الا تحت اقدامي
وازهور الغرب الا تحت اعلامي
تمشي البطولة والسحر الحلال معي
فالارض مسـرح آساد وآرام
نقشت في الشمس طغرائي وما برحت
مرسومة في جبـين البدر اختامي

ما غيرت نكبات الدهر من شيمي
وان طوت في ثنايا الترب آطامي
حطمت اشرس ضار في جزيرته
ما ابتل نعلي ولا دنست اقدامي
فارتد عن بر سعيد جيشه كلما
خطت على الرمل او اشباح اقلام
كم نبضة من فؤادي في عمان لها
قصف يدك الصياصي في بكنهام
وزأرة من جبال الاطلس اخترقت
كالنصل سمع المصـلي في نتردام
لا أسأم الحرب ما طالت وما حزبت
فالعام كاليوم حـين اليوم كالعام
حتى افوز بحقي غـير منتقص
ويذهل الخلق انشائي واتمـامي
والحق اغلب والاعداء جانحة
للسلم بعد رضى او بعـد ارغام

* * *

وابني فتى النيل حـلاني بجوهرة
عزت على كل غواص وعوام
من يبك عهد الموامي والدمى فانا
والحمد لله قـد حطمت اصنامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت
عروبتي مثـلي الاعلى واسلامي
بناصرى وبأسواني فخرت اذا
باهى الدعي بفرعون واهرام

عاش الذي ادب الطاغي وكبكبه
عن القناة ذليلا خافض الهام

دع ذكر كل عظيم حين تذكره
وقف دقيقة اجلال واعظام

فما رمى رمية الا مسددة
ولا خطا خطوة الا بالهام

كم خطبة كالندى والجمر منه شفت
اكبادنا وشوت اكباد ظلام

نفوسهم تحت اطباق الثرى ضعة
وشرهم بين افلاك واجرام

ما قط كلمهم الا وكلمهم
كأن الفاظه من حد صمصام

ولا رأوا رسمه الا لحرقتهم
ودوا لو انتقموا من كل رسام

وزاعمين مساواة واسودهم
من ارض آبائه في دار ايتام

ما ضنة العبد ان قيست بسمعتهم
في الارض الا شذا ورد بأكمام

لا يستبين المصلي في كنائسهم
ان كان يصغي لقس او لحاخام

حرية للملوك المال خاضعة
تساق فيها الرعايا سوق انعام

فما الرئيس واتباع الرئيس لهم
الا الارقاء في ازياء حكام

ما ضر ايدن لو تمت اناقته
او كان بدل اخلاقاً بهندام

يود بالنفس لو ردت مكانته
ولو قضى العمر في اطمار فحام

ألوحة الدرس أم سيناء غارقة
من العدى بجنود أم بأرقام

محاهم الله منها محوة تركت
في مهجة الغرب جرحاً غير ملتام

لما تحالف اثلاثا على بطل
فرد خبير بعلم الكسر حطام

قام الرمي على ساقيه منتصباً
ولم يزل جاثماً في ارضه الرامي

ينام ذو البغي في المهد الوثير على
جمر الضلال ويمشي فوق الغام

قل للأولى سخروا بي وازدروا ادبي
من خائن وشعوبي ونظام

وكل هشام اعراض له قلم
وغد وليس له عرض لهشام

وشامت بي مسرور بحزني
مستشف بدائي ملتذ بآلامي

قولوا له عرباً تقضوا عليه فان
يسلم فثنوا بقرآن واسلام

كم من سيوف على اعدائكم شهرت
صيغت مضاربها من قلبي الدامي

وراية حرة في جوكم خفقت
حيكت حقائقها من غزل أوهامي

البقية على الصفحة « ١٤ »

بين السينما والمسرح

بقلم

الدكتور ابراهيم الكيلاني



ينظر انصار الفكر المعاصرون بقلق شديد الى الصراع القائم بين السينما والمسرح حتى يكاد يصل قلقهم ازاء انتشار السينما وتوسعها واقبال الجماهير عليها الى حد الاعتقاد بأن نهاية المسرح قد اقتربت وأن السينما لابد ان تقضي عليه في وقت ليس ببعيد .

ان هذا الحذر ظاهرة طبيعية تبدو في تاريخ الحضارات عند ظهور اشياء جديدة فتزحم اشياء قديمة لها مجدها وسلطانها وتقاليدها ، وقديما خشي الناس ان يقضي التصوير الشمسي على الرسم اليدوي والحفر ، واللاسلكي على المراسلات والانشاء ، والآلة الكاتبة على الكتابة اليدوية ، والقطار والسيارة والطيارة على التأمل والاستمتاع الهادىء العميق ، والرياضة البدنية والعضلية على المواهب العقلية وغير ذلك من المستحدثات التي تتناول شؤون الحياة كافة .

والواقع ان المسرح اليوم في حرج شديد ، وضائقة خطيرة ولولا تبني الحكومات للتمثيل المسرحي وصيانتها ورعايتها للممثلين بمختلف الاساليب والطرق والمعونات المادية والمعنوية ، وترغيبها الناس بارتياد دور التمثيل لاقفرت هذه من أهلها ، ولآذنت حياة المسرح بالزوال .

ذلك ان كل فن من الفنون اسبابا حياتية يستمدها من طبيعة الزمن والبيئة التي وجد فيهما فالمسرح مهما قيل اليوم عن جهود الحكومات في توجيهه وجهة شعبية موقوف وسيظل موقوفا على نخبة مثقفة نيرة ، فهو يتطلب في الفرد حدا معينا من الثقافة والرقي الفكري والشعوري ، فهو ارستقراطي بطبيعته ووسائله ومناهجه في حين ان السينما ديموقراطية جماهيرية في وسائلها وغاياتها فالمسرح والسينما يتطوران في عالمين شبه مستقلين تفصلهما عوامل سياسية هي مادة حياتهما وعلة وجودهما .

ان التعبير في المسرح يقوم على القول ، أما الحوادث التي يشهد النظارة وقوعها على خشبة المسرح فهي ثانوية بالنسبة لما يسمعون ، أما التعبير في السينما فيقوم على الصورة وبذلك تغدو المادة الكلامية والصوتية ثانوية بالنسبة لها مما حدا بأحد السينمائيين الى القول : (لو ان رجلين ، أعمى وأصم ذهب الاول الى دار التمثيل والثاني الى السينما ، لفقد كل واحد منهما جزءا كبيرا من المشهد ولكنه يحتفظ مع ذلك بالشيء الجوهري) .

على انه مهما كانت الصورة السينمائية قوية الدلالة والتعبير والمفعول فانها لا تعوض بحال من الاحوال وجود ممثلين من لحم ودم على المسرح الذين يشيعون بوجودهم أمام النظارة جاذبية الوجود الحي ، وسحر الصوت الانساني ، في حين ان السينما مجموعة صور مسجلة ، واصوات محفوظة في أوعية جعلها مرور الزمن في حيز الماضي ، ثم ان التمثيلية ذات موضوع كامل ، مفصل ، متسلسل مكثف يقتضي المشاركة الذهنية والعاطفية ويستثير روح المتعة بالمسموع في حين ان الصورة السينمائية واسعة محددة في مجالات الحياة بل هي اكثر اتساعا وتمددا من الحياة نفسها في حركاتها وسكناتها وسكوتها وكلامها ولذا تظل مشاهد التمثيلية راسخة في مخيلة النظارة سنين عديدة ، أما في السينما فان الفيلم لا يترك في مخيلاتنا سوى أثر ضئيل عابر .

على ان للسينما مزايا مكنتها من التفوق في بعض المجالات على المسرح هي انها اقرب الى الحياة الواقعية التي نحياها جميعا واقدر في الوقت نفسه على تحقيق الانطلاق ضمن هذا الاطار الواقعي ، فهي ليست محصورة في حدود

الزمان والمكان بل تنقل المتفرج دونما جهد أو تعب عبر الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل مما يعجز المسرح عن الاتيان به عن غير طريق التصور والتخيل ، وهذا ما حدا بالسينما عندما بلغت اشدها واخذت تدرج نحو التكامل الى الاغارة على نوع ادبي يتجاوب واسلوبها التعبيري وهو نوع الرواية .

ولئن كان المسرح محدودا في حواره وحوادثه بالزمان والمكان فان للرواية اجواء واطارات لا نهاية لها فهي تحقق مطالب السينما التي هي قبل كل شيء صور تراها العين، ومجال يسبح فيه الخيال ، والفكر عند الجماهير كما قلنا يكتسب في حضارتنا الحالية طابعا بصريا لا فكريا تأمليا .

من عوامل قوة السينما سرعة الامتصاص ، فهي تفتش عن غذائها عند الفنون الاخرى فتأخذه حيث تجده فقد استعارت موضوعاتها من القصة والرواية والمسرح فخلقت ما أسموه بالمسرح السينمائي ، كما استعانت بالنصوص المكتوبة ورائدها في ذلك دوما الضرورة والسهولة ، ولم يفتها أيضا التنويع في الموضوعات التي ترضي جميع النزعات وتشبع جميع الرغبات ، ففيها الافلام الواقعية التي تصور الحياة ، وفيها الافلام الخيالية التي باعتمادها على الخيال تقترب من نوع الملاحم . وفيها الافلام التاريخية والنفسية التي تعالج قضايا نفسية معينة اجتماعية أو فردية ، وفيها الافلام البوليسية والغنائية التي تختلط فيها الموسيقى بالحوادث وفيها الافلام الهزلية ورائدها شارلي شابلن الذي استغنى بالاشارات والحركات عن الكلام وفيها الصور الحية Dessin Animé التي امتزجت فيها خيالية الاشخاص والمكان ، وفيها الافلام العلمية التي جمعت بين المتعة والفائدة باعطائها الجمهور صورا صحيحة عن العالم ومشاهده المتعددة غير المنتظرة في الميادين العلمية والاقتصادية والتاريخية والسياحية ... الخ وفيها افلام الحوادث التي تعد تأريخا للاحداث المعاصرة وهي تفضل اخبار الصحف التي تنعكس نصوصها في ادراك القارىء عن طريق الكلمات والجمل في حين ان المتفرج يشاهد على الشاشة الحوادث وتصرفات الاشخاص كما وقعت تماما .

ان فنية « تكنيك » السينما في الاخراج تفوق آلية الاخراج المسرحية البطيئة ، في تحقيق التتابع السريع في مشاهدها ، والانتقال العنيف المفاجيء وتغيير الامكنة وتعجيل الحركات البطيئة وابطاء الحركات السريعة وارجاع الحركات الى الوراء والتكبير والتجسيم وتقريب البعيد وابعاد القريب ... كل هذا قد اثبت ان للسينما امكانيات لا حصر لها .

والآن يحق لنا التساؤل : ما هو مستقبل السينما ؟

من الصعب التنبؤ بمستقبلها ولكن يمكننا القول على ضوء التقدم الذي احرزته انها ستواصل تقدمها واحتلالها مكانا واسعا في حياة الانسان الحديث ، وستلعب دورا في تسليته وتثقيفه وستحتل محل الكتاب في كثير من النواحي الثقافية و سنكون اداة تربوية واخبارية وثقافية بل ستأخذ شكل مسرح عالمي واداة تقارب او تباعد بين الشعوب ، كما انها لن تعيش عالة على النتاج الادبي والمسرحي بل سيكون لها مؤلفوها ومخرجوها وتتاجها القائم على الابداع لا الاستعارة والتقليد وهذا كله لا يعني ان المسرح سينقرض بل سيبقى لان للمسرح مقوماته وغاياته وأساليبه وسيظل أكثر الانواع الادبية رواجا وجاذبية فهو يتجاوب وحاجة الانسان للخيال ونزعته الغريزية الى التقليد والتسلية التي تخفف من تفاهة الحياة وتحقق الانطلاق المرجو والحاجة الى الهزات العاطفية ، فان في الانسان فائضا من الخيال والحساسية التي يدخرها في حياته اليومية في اعماق نفسه فالمسرح خير وسيلة لتصريف وتصعيد هذا الفائض المخزون في اشكال عاطفية تتجلى في الاعجاب أو الخوف أو الرحمة او الحب او التوهم . ان الكلمة هي التي تضمن البقاء للمسرح واذا قلنا الكلمة عنينا المكتوب والاثر الادبي الذي تكتبه يد عبقري فتضمن له الخلود على مر السنين .

نقطة صمت

قصة بقلم

مطاع الصفدي

كان بوده أن يكف عن التدخين ، وأن يتشبث بجمود قامته وقد استندت الى كرسي مريح في هذا المقهى المترف العصري • فيدع نظراته الكسولة تتمطى من خلال واجهة المقهى الزجاجية وتنقله الى الشارع بين العابرين •

ولقد نظر الى ساعته للمرة الخامسة خلال هذه البرهة القصيرة التي قضاها منذ نصف ساعة تقريبا •

انه مازال يحمل ثقل هذا الشعور بنفسه ، ثقل الغرابة وعدم التلاؤم • ولذلك ما كان له أن يلقي نظرة متمهلة فاحصة على هذا المكان • ان كل الامكنة ، الوجوه ، المناظر ، الحركات والملابس والمعاملات الاجتماعية ، تكاد توقعه بحرج دائما ، وتجعله يرتد الى نفسه اكثر فأكثر • ويؤثر الا يثير أقل ضجة ، ألا يلفت انتباه احد ، الا يضطر للخوض في موضوع مع أي زميل في هذه الجامعة الكبيرة الضائعة بين أشجار الصنوبر ، والمموجة بين حدائقها المعلقة كأنها معبد عجيب •

ولقد اعتاد أن يقضي أوقات الفراغ بين الدروس في هذا المقهى المقابل لابنية الجامعة • ورغم انه ما كان يرتاح بين رواده تماما ، ولكنه كان يلقى بعض العزلة ، بعض الظل ، بعض اللامبالاة منه ومن الآخرين ، مما يدعوه الى شي من الطمأنينة ، لا ينعم بها في غير هذا المكان •• مثلا في المكتبة ، أو في طرقات الحديقة الصاعدة النازلة ، الملتوية الخبيثة •• وبين منعطف وآخر ، وفي دغل ودغل ، أزواج أو حلقات من هؤلاء الزملاء والزميلات ، بحركاتهم الغريبة ، ألبستهم البسيطة ، ضحكاتهم العفوية •• هذا اللغز من العفوية والانسياب والحركة الدائمة التي يتكسر تلقاءها محمود دائما منذ أن وطأت قدمه ارض بيروت •• وخاصة ارض هذا العالم الخاص •• الجامعة الاميركية •

وأما هذه الساعة ، فهو لا يجلس لمجرد قضاء الوقت ، انه على موعد مع أحد زملائه (رينه) • وهو شاب مرح مخلص لعواطفه ، وفي الوقت ذاته يميل الى الغرباء ، وخاصة اذا كانوا من سورية • ولقد تدخل في وحدة محمود وظل يقذفه بطيبة وصفاء نية حتى ركن اليه • وبدأت صداقتهما تدريجيا في الصف وفي بعض الفرص ، حتى اصبح لديهما ما يتحدثان به ، فتواعدا على اللقاء في هذا المقهى هنا ••

وحانت من محمود التفاتة الى الرصيف ، فلمح احدى هؤلاء اللواتي يملكن القامة الطويلة المتموجة نحو اعلى ، ذات التسريحة القصيرة ، ذات الالبسة الرشيقة : التنورة والبلوزة والكنزة الجميلة •• هذه المخلوقات التي تشع منها اللامبالاة الدافئة ، والثقة الغريبة ، ونوع من السعادة المترفة ، التي لم يجد محمود بعد لها معنى واضحا في ذهنه •• وعن انواع السعادة التي يعرفها •• وظل يتابعها بأنظاره حتى انتقلت من الرصيف المقابل الى رصيف المقهى ثم ولجت بابه •• ولم ينتبه طيلة هذا الوقت ـ وكان الوقت طويلا فعلا اذ تشرّب كل ثانية فيه ـ الى رفيقها الذي يسير الى يمينها • وما رآه الا وهو امامه •• كان رينيه و •••

ـ محمود ، أقدم اليك مدموازيل (ليزا) •• آه عفوا بالعكس •• أقدم اليك محمود من سوريا •• من حلب • على كل حال ستتعارفان أكثر •• انك تسمح لنا بالجلوس طبعا !

محمود ليس غريبا الى هذه الدرجة ، ولكن من يقول انه ليس غريبا مع •• هذه أو هذا النوع على حد تعبيره ، بينه وبين نفسه • النوع الجامعي الذي لم يدر بعد كيف يمكنه ان يشمله بحكم عام ، ثم يتنبأ بتفاصيل سلوكه ، وبردود الفعل التي عليه أن يتخذها حياله في المناسبات ، التي قد تجمعه بنموذج منه ••

وحدد موقفه تدريجيا من خلال هذه الضجة التي داهمته فجأة • فمنذ ان قدما وهما يضحكان • وما ان جلسا حتى تابعا الضحك • كانت أبسط كلمة يلقيها رنيه مدعاة لأن يقهقه هو ، وان تقهقه هي ، وتعم رأس محمود قرقعة مفزعة •• لا بد أنه اخذ يتلاءم معها منذ أن راح يغرق ، لا في بحر بيروت الازرق الناعم ، ولكن في خضم (البرج) •• حيث اللحم والعرق والحديد والمازوت في معركة كثافة وقلق لا تهدأ ابدا في قلب بيروت • وهدر رنيه في سيل من الحديث عن كل شيء ، من الافلام ، الى حفلات الرقص في بيوت

الانحطاط ، بتنا معها بدون هوية ، بدون ارض ، بدون سيادة ..

وهز رنيه رأسه ومال مبتسما ، موجها حديثه الى ليزا.. التي مازالت تعلق انظارها بفم محمود ، تتحسس الفاظه ضمن الصرامة السمراء التي تبرز فيها رجولة ملامحه :

ــ ألم اخبرك ان صديقي محمود رجل طريف .. وان لديه الشيء الكثير مما لا نملكه نحن في حفلات المامبو والروك اندرول ؟ انني أوافقه وأحب هذا الذي يقول .. لقد أضعنا هويتنا الى درجة اننا لم نعد نجد في لغتنا وتاريخنا ما نسمي به اطفالنا .. لم أعد أطيق حتى اسمي هذا الذي ينطقه كل شخص بلفظ خاص .. ولا اعرف كيف اكتبه بالعربية .

وقاطعته (ليزا) :

ــ أهذه ثورتنا اذن ضد اسماء أو الفاظ ؟..

وأجاب محمود عوضا عن رنيه :

ــ هذه الاشياء الصغيرة اذا تكدست طمرت ملامح شخصيتنا الى الابد .. تصوري اننا نستورد ملبوساتنا ، رقصاتنا ، أمتعتنا ، أسماءنا .. لغتنا ، مما وراء البحار . فماذا يتبقى لنا من هذه الارض ؟.. التراب فقط !

وقالت ليزا بحدة :

ــ ولكننا مضطرون جميعا يا سيدي لذلك .. انظر الى نفسك قليلا ، ألم تأت من حلب لتدرس في الجامعة الاميركية؟. أليست هذه من المستوردات الاجنبية ؟.. اننا لا نملك ، ولهذا نستورد ..

ــ لا نملك ، هذا صحيح ! ولكن كيف استطاع الاجانب ان يملكوا ؟ انهم على الاقل يدافعون عن ضرورة أن يملكوا ، يناضلون من اجل ان يملكوا .. يعرفون من هم وما هي حاجاتهم وما هي الطرق الاصيلة المناسبة لهم للحصول عليها.. ولعلنا نحن نريد هذا الدفاع أولا ، هذا الشعور والايمان بأننا موجودون وبامكاننا ان نملك وان نصنع .. وان نبعث شخصيتنا بكل قيمها العصرية الحديثة .. انه ايمان اولا ، ونضال ثانيا ..

وفي هذه اللحظة داهم جو المقهى الظليل صخب جلف خام ، جملة من القامات اللامبالية ، من الرؤوس المترنحة ، من الافواه التي ترمي بكل جلجلة حبيسة فيها منذ الازل . ونظر محمود الى هذه الجماعة من الزملاء وعلى ثغره ابتسامة متأنية صبور ، والتفت الى رنيه قائلا :

ــ أيمكنني أن اقول انه حتى مرحكم هذا غير طبيعي ، ظاهرة مرضية ، كأنه تعويض عن نقص كبير ؟ انه مبالغة مصطنعة ، جذبت اشكالها من آخر مودة في لبنان اليوم .. تقليد امريكا . والمقلد احيانا يبالغ ، يتشبث ويتعنت في تقليده اكثر بكثير من النموذج ذاته ، ليثبت ملكيته لما يقلد وجدارته به .. هذه اشبه شيء بالحمى ايها السادة .. عارض مرضي ولا ريب !

وبينما راح محمود يتابع حديثه على هذه الوتيرة ، كانت ليزا تتلهى برد التحيات السخية على الجماعة التي احتلت امكنتها في طول المقهى وعرضها وكأنها في بيتها . وما عتم ان قام احد الشباب منهم ، وسار على ايقاع راقص تشنجت به اعصاب قدميه ، ووضع قطعة نقود في الحاكي الآلي ، فانطلق هذا يشحن الجو بصخب رقصة من نوع (روك اندرول) ، التهبت له سيقان الفتيات ، وتهيأت له عضلات الشباب الرجال ، واشتبكت الايدي والانفاس في معركة الايقاع البوهيمي العنيف العصابي .

كان دوار هائل فقد الراقصون فيه ابعادهم ، ثقلهم ، كتلهم ، وتشغفوا في ذهول مسعور . وكانت فرحة قاتلة تتأجج من العيون المبرقة .

وسيطر الايقاع على قدمي ليزا فبدأت تهتز وهي جالسة ونظرت الى رنيه هنيهة ، فاندفع هذا ، وكأنه يرقب هذه النظرة من البدء ، فانتشلها الى الحلبة .. ودار بها ، واطلق طاقتها من الانوثة والثورة الغامضة والسكر الملحَّن .

ومحمود يعرف كيف يتابع جسدها الموقَّع ، ويلتقط من بين زحام الاجساد نظراتها ، ومن بين زحام الانغام نغمتها ، ومن خلال فورة الحركات المجنونة حركتها هي .. كان يحس ان ليزا ترقص .. ترقص في الواقع معه وحده .. وله !

* * *

نفخت أم ليزا شعلة المصباح فأطفأته ، وانطفأت وراءه ملامح وجهها الرزين .. واختفى شبحها من الردهة خلف احد الابواب القليلة التي تحيط بالردهة من جوانبها الاربعة.. الا من هذه الزاوية حيث أقيم موقد قروي كبير .. كان في هذه اللحظة يعاني بقايا مجد هذه الليلة من النار الكثيفة الكبيرة التي اتقدت بين اضلاعه .

وران هذا السكوت المطلق مرة اخرى ، سكون الجبال العالية البيضاء وقد تشربته جدران هذا البيت ، وتسرب من شقوق الاحجار والنوافذ ، ليخيم بعمقه الاثيري ههنا ، في ردهة كانت منذ قليل عامرة بالعيد والفرح والناس العذريين في كل شيء ، في حبهم وفي املهم ، في شقائهم واعيادهم . وقرب شجرة عيد الميلاد الصنوبرية .. وحول هذين الشبحين المستقرين على مقعد عريض تلقاء نار الموقد ، يضيئهما قليلا القبس المنبثق عن بقايا الجمر . لم يبق غيرهما من حفل العيد .. كان كل شيء في بدايته بعد .

وتناقلت الصخور الباردة اصداء ابن آوى ، وقد راح يودع الليل هو ايضا . وحول محمود عينيه قليلا عن تراقص ذؤابات النار في الموقد ، الى ظلال هذه النار على وجه ليزاء كانت شبه مطبقة الجفنين ..

ها هو يراها ، يتأملها ، يتذوق كل آية فيها ، وهي هادئة لاول مرة . لا تنفجر مرحا أو ضحكا أو غنجا ، أو موسقة ميادة في سيرها وفي جلوسها ، في رقصها وفي ولوجها لقاعة المكتبة .. وفي أي مجال يثير فيها جزءا من طاقتها الفياضة في الحياة والحركة والطفور المبدع الرشيق . وقلما أتيح لمحمود أن يجتمع بها لامد طويل هادىء بعد ذلك اللقاء الاول في المقهى . ولكنه كان يصادفها بين حين وآخر في حديقة الجامعة أو في بعض الحفلات أو في ذلك المقهى وغيره، فيتبادلان التحية وبضع كلمات على هامش التحية ثم يفترقان . الى ان كانت عشية احدى الامسيات الناعمة ، فقد صدف انهما التقيا عند باب الجامعة وهما خارجان بعد انتهاء المحاضرات . وهنا كان لابد ان يسيرا معا الى مسافة طويلة .. وقبل ان يصلا الى حيث يجب الافتراق بادرته ليزا قائلة بصوت عميق يرعشه دلال كبرياء لطيفة :

ــ استاذ محمود ، انني أهيء موضوعا حول المسرحية الانجليزية الحديثة .. ولقد سمعتك مرة تتحدث في هذا الموضوع .. اعني انك مطلع عليه . فهل لك ان تساعدني قليلا في انجازه ؟..

ــ في الحق انني لست مطلعا تماما ، ولكن مثل هذا الموضوع يثير انتباهي وقد يصح ان نتدارسه معا .. ماذا ، أتمضين الى البيت مباشرة بعد نهار شاق من الانصات واعمال الفكر ؟.. أعتقد ان الامسية في رأس بيروت الان ممتعة ، فما رأيك ؟ ان الجو صاف ويمكن ان نراقب غروب الشمس .. هناك سمفونية من الالوان التي تستحم عبر الافق ..

وامتطيا سيارة أجرة ذهبت بهما الى شاطىء البحر ، وجالت بهما قليلا بين الابنية الحديثة والصخور الشاهقة على الساحل ، حتى انتقيا اخيرا منتزها فمضيا اليه ، وانعزلا حول منضدة ملتصقة بالبحر مباشرة . ودار الحديث بهما حول المسرحية عند (شو) ، وراح محمود يشرح لها الشروط الفلسفية الحضارية التي تسمح بظهور المسرحية الهزلية ، عندما يهرم الشعب وتتحول جميع مقومات حياته في ربيعه المنصرم الى قشور لا نفع لها في حاضر راهن يتطلب تجديدا في جذر الامة وفي اشكال انتاجها من فن وسياسة . وانتقل الى سيكلوجية المسرحية الهزلية ، معتبرا اياها تنفيسا ابداعيا عن كبت انحلالي سلبي .

ولكن ليزا التي كانت ترتاح لمجرد سماع حديثه ، كان يجذبها في الوقت نفسه سحر الغروب وهو يخترق الافق بشفق ارجواني تتوالى خلاله الوان حزينة ، عميقة رائعة .

ولكن محمود كذلك ، بينما ينطلق لسانه ، تلمح عيناه وجه ليزا وقد اضحى مرآة لهذا الغروب الطري الشفاف . كان يـ عيش هذا الحنان الاسمر ، الطافح من ملامحها اللينة الهاربة ، في الوجه وقد ضاع ضمن هالة وردية من ألوان الاصيل . وتمتمت ليزا وكأنها تخشى ان تخدش روعة الجو :

ــ وانت يا استاذ محمود ، انك محدث بارع حقا .. لقد تسابق الزملاء في مدح محاضرتك عن (العروبة في لبنان) .. أنا آسفة لانه لم يتح لي الاستماع اليها ، ولكني قرأتها فيما بعد في المجلة .. كأنك تريد اثارة كرامتنا .. هذا جميل ، حلم رائع ان تكون العروبة كما تحدثت : كرامة وقوة وحرية .. ان رنيه ، وكثيرين غيره ، متحمس لك ! انك تظهر لهم اشبه بنبي .. ويضحك محمود قائلا :

ــ لا ، ارجوك .. فما انا الا واحد ، من ملايين هذه الامة ، تبنى قضيتها .. واني لاسعى ان تتحد شخصيتي حقا بعقيدتي . انني اقول ما أؤمن به فحسب ، ولولا ان هذا الايمان كامن في نفس كل فرد من الجيل العربي لما وجدت انا وغيري أي صدى . كل ما هنالك اننا نعرّف انساننا الى هويته .. وهو بعد ذلك متروك لمسؤوليته عما تتطلبه منه هذه الهوية ..

ــ وهذه كذلك لهجة انبياء يا استاذ محمود .. لعلك لا تدرك ذلك بعد !

فيحملق بها ذاهلا ، ثم يلتفت الى الشفق الذي راح في سديم العتمة يلملم بقايا نوره الشاحب •

وتابعت ليزا بسلسبيل من الحنان النبيل :

ـ لا تعجب ، ان انبياء القرن العشرين لا يرتدون الجلابيب ولا يحملون العصا ، ولا يرخون لحاهم ، ويقفون على نتوء من الارض يهدون ويعظون •• قد يكون بعضهم بيننا في لباس انيق ، ووجه متألق ، وعادات عصرية••والفرق بينهم وبين العادي من الناس ، انك ترى في عيونهم النظرة التي ترتد دائما من الخارج الى صاحبها ، الى اعماقه •• وفي بعض المناسبات الاجتماعية تكتشف سذاجته الكبيرة • وفي ظروف اخرى يفاجئك فيه هذا الذهول العجيب ، هذا العجز عن التلاؤم •• التلاؤم مع آلية العصر ••

ومال محمود اليها •• لقد احس انها تصفه ••

ـ نعم يا استاذ ، لقد راقبتك جيدا • ان انظارك لا تحد بما ترى •• دائما تطفر في هالة حول الشيء المنظور • وانك ساذج وبسيط ، خجول الى حد الشفقة •• وعاجز الى حد بعيد عن التلاؤم • كل ذلك تخفيه وراء سحنة متكبرة •• وعزلة صامتة ، ومشية هادئة منفردة بصاحبها كأنها تخطو على شفاه الوجود وليس على الحجر البارد •

وتهدج صوتها من فرط التأثر ، ووصل بها فيضها الى ان تقذف اخيرا بهذا السؤال ، سؤالها القديم :

ـ أأحببت مرة يا محمود ؟

ولم يدهشه سؤالها • فلقد كان ذلك الاسى اللذيذ ، الذي طالما غشيه ، قد صعد من اعماقه وانعقد فيجوشعوره اشبه بصلاة صامتة ••

ولم يجبها محمود آنئذ بحرف واحد • ولم تسأله هي ثانية •

وأتى عيد الميلاد ، فدعته الى قضاء بضعة ايام في قريتها الغارقة في الثلج والصنوبر والضباب والصمت الابدي •

***

ما زال في الموقد بصيص من الاشعة الواهية ، تعكس على وجه ليزا حمرة موشحة بالظل المتواثب الرقيق • وهمس محمود :

ـ ليتنا ندري نهاية هذا الصمت•كان هذا البيتالصغير منذ قليل تصخب اعماقه بكل صوت • وها هو الان يبتلعه الصمت ثانية •• والارض ، هذا العالم الصغير ، ترى كيف يمكنه ان يبقي على صدى واحد من صخبه في الفضاء الاصم ؟

ويتابع بعد لحظات :

ـ احسب ان ما تفهمه من كلمة « معنى » ليس الا هذه النقطة من الصمت التي تظل ممتنعة دائما عن ان تكون معروضة لكل حاسة عابرة •• ضمن اي مظهر أوشكل••ان بعضنا يبحث عن معناه في ثيابه الانيقة ، وبعضنا في طعامه ، والاخر في الرقص أو الكتاب أو الشهرة • ويظل مع ذلك معنى سديميا نسبيا ، له فناء صاحبه وسخفه •• ان الذي يهمني هو هذا البحث •• وليس المعنى ذاته • ان هذا البحث اسلوبه ، تمزقه وقلقه هو المعنى ذاته ولا شيء بعده ابدا ••

وقالت ليزا من خلال حلم مرهق ولكنه عذب نغوم :

ـ أنا عرفت هذا الشقاء الذي تقول ، تمزق البحث عن شيء لا اعلمه ••

عندما شببت على الحياة وجدت نفسي حبيسة معاخوتي في غرفة واحدة طيلة الشتاء القاسي نرقب بعض شعاع من الشمس ، واذا حل الصيف سارع ابي الى شراء حاجيات مختلفة لا نجسر ان نمد لها يدا •• فهي لاستعمال المصطاف الذي سيحل بدارنا • واما نحن فننزح الى غرفة ملحقة بالدار •• حينئذ كنت القى معناي كله عند هؤلاء الغرباء المترفين الذين يأتون من المدن السحرية • واصبح محطاملي واحدة من هذه المدن • واذ حللت بيروت اخيرا وجدتني ابحث ، من جديد ، عن معناي • فاذا بالشابةمناتصبحموضع سخرية ان لم تخلط كلامها بمزيج من العربية والافرنسية والانكليزية ، وان لم تتقن آخر رقصة جاز ، وان لم تعمل بشعرها مقص الحلاق حسب آخر مودة من ايطاليا •• وعلى هذا كنت القي نفسي في سباق عجيب ، سباق ما أحسست تفاهته الا عندما حدجتني بنظرتكهذهالمسالمةولكنها الكاشفة المربكة •• وانا ارقص مع رنيه •• أتذكر فيلقائنا الاول؟•• ولقد رحت اردد كلامك • أترانا فعلا مرتبكين الى هذه الدرجة لاننا لا نعلم من نحن بعد ، لانناتعتقدمعنانا الاصيل، هذا الذي نكشفه من اعماقنا ، ولا نشتقه من فلم أو رواية أو نموذج اجنبي يعمر شوارعنا وفنادقنا • هذا المعنى الذي ينتزعنا من فرديتنا المريضة ويكسبنا عقيدة في وجودنا وحريتنا من خلال امة •• خلية انسانية كريمة •

لقد اندفعت لاقرأ كل ما يتعلق بفلسفة امتنا ، واتابع اخبار محنها وانتصاراتها من الجزائر الى مصر الى العراق .. وشعرت ان قوقعتي تتحطم ، وانني اصبح أكثر من نفسي ، ومن ضجري وسأمي .. ومن هذا العبث في كل شيء اتبناه ثم أحتقره .. هذه هي الحياة التي أردتها أن تدب في عروقي، هذه هي المشكلة التي اشغلت فيها وجودي دون أن أستنفذها أو تستنفذني .. انني مدينة لك يا محمود ، لقد أصبح لبحثي معنى حقيقي .. انني أحس انني احد الذين يخلقون هذا الكون كل لحظة ويحملون مسؤولية كل ما فيه ... وانها ، على الاقل ، مسؤولية الخير المفقود منه .. اننا نحس ان ثمة خيرا ما في العالم ، قد لا يكون بعيدا عنا ، وقد لا يكون شيئا أزرق سحريا يأتينا من عل ، وقد لا يكون نظاما حقوقيا ، أو شيئا محددا . انه أشبه .. بالفن .. نعم هذا هو التعبير الصحيح عنه .. انه فن ، فن أن يحيا الانسان جماله .. الذي ينبع من أعماقه وليس من أي مكان خارجي . انه هذا اللامحدود .. عرفته رهبة وجلالا منذ طفولتي الاولى ، وأنا أستمع الى السكون يحيط بيتنا الصغير

طفولتي الاولى ، وأنا أستمع الى السكون يحيط ببيتنا الصغير

في وحشة الثلج وسديم الثلج .. هذا الابيض اللامتناهي البارد الذي يسدر على لغة مطلقة مجهولة .. ويبطن سلاما لا كنه له . سلام يجعلنا نخاف ونرتبك ، ولكن تظل نفوسنا معلقة به ، تنزع الى الاتحاد معه .. الى ان تضيع ضياعه .. والى ان توجد وجوده فوق كل قالب أو لفظ ..

ومنذ أن نزلت بيروت تحول طموحي الى اللامحدود ، الى مبالغة في كل لذة أو عادة . فكنت اريد أن أكون الاجمل بين الزميلات ، الارشق بين الراقصات ، المحبوبة بين الفتيات الى درجة أن أكون موضع أعظم تنافس عنيف . وحصلت على أشياء كثيرة مما ابتغيت .. ولكني بين حين وآخر احس ان نقطة الصمت ما زالت مكدرة صماء في مركز وجودي ، وانها تحفر في لحمي ، أعمق فأعمق ، وتنفث في صدري كآبة ثقيلة مهووسة ، ولا أستطيع أن أتجاوز هذا الشعور ، الا بأن اغرق في لجة جديدة .. كأس ، أو رجل ، أو ثوب .. رقصة .. قصة ..

(صمت) ولعلي الآن في لجة أخرى !

كان محمود يتابع الاجواء الروحية كما تحاول صديقته ان تعبر عنها خلال هذه الصور ، التي ارادت أن تكون رموزا لحياتها العميقة الحقيقية ، غير التي تحدد ضمن كلمات أو سلوك أو حوادث خارجية معروضة ببساطة النسخة .

واذا بلغت هذا الخاطر الاخير (لجة اخرى) انقطعت سلسلة أفكارها ووقفت هي ذاتها تعاني دهشة امام هذا الكشف ، ورنت الى محمود تسأله عيناها : الى أي مدى يوافق هو على هذه الـ (لعلَّ) التي شحنت بترددها الايجابي جملتها تلك .

وقال محمود وعيناه عالقتان بقبس دخان يعلو من بقايا الحطب امامه :

ــ لم يسبق لي يا ليزا ان كنت طرفا كفرد ، في قصة ، مع فرد أو أفراد آخرين . كنت أعيش دائما مع المعاني ، مع المصائر العامة . وقد أحسنت هذا الطراز من الحياة . ولا اخالني احسن غيره ... قبل .. قبل الآن .

لم تكن تدري ما تفعله تلك اللحظة . ان غريزتها تدلها على حقيقة الرجل الذي هو الى جانبها . كانت الصورة تزحم جسدها .. والليل في آخره . ومجهول الافق الشتوي يخنق نارها في مهدها ..

وحنَّت الى سريرها ..

انها تستلقي عليه . تلف جسدها بالاغطية الصوفية . وذلك السبات الذي لا آخر له . النظرة الواحدة من العيون نصف المغمضة ، من النفس السديم ، من اللوعة المجروحة . وذلك المطل من الوسادة ، الى النافذة ، الى ليل السفوح المتسرب الى هوات تعمرها هينمات من السحر البكر ، والهدأة المستسلمة الفاغمة . وان ليزا تهيم بسحر مجهولها .. مجهول في هذا التموج الملذ المؤلم من عواطفها ، ومجهول أمامها في العالم ، الطبيعة والجبال والآفاق السادرة .

لقد عادت اليها سدراتها تلك في ليالي القرية الشتوية ، وهي الى جانب محمود . ومن محمود تنبعث تأملاتها المتسائلة ، وشوقها الكياني المشع نحو .. نحو كل شيء .. ولا شيء .. ومعه سوط من اليأس المغفل يلهب شوقها . تريد أن تتشبث ، أن تتمسك ، أن تعلق شيئا ثابتا في هذا الفراغ ..

تماما كما كانت تحس في سدراتها أن نظرتها التي تجرفها نحو السفوح ، انما تقذف بها في فراغ ، في منزلق ناعم مريع ، تنزلق عليه في سرعة الفراشة المذعورة التي ضلت

روضها وسربها • وتبحث عن هـذا الشيء الذي تريد أن تتمسك به •• ولكن عبثا تحاول • فالباب مغلق ، والمفتاح ملقى في جب من الوهم المختنق بهدأته وبطئه •

وفي هـذه الامسية نعمت ليزا بالرجل كما لم تنعم من قبل أبدا • لقد قضت النهار كله بين أن تشرف على اعـداد البيت للعيد ، وبين أن ترمي بروحهـا الى أول منعطف من الطريق المتعرج • كانت تشك في أنه سيأتي • ولكنه عندما طرق الباب استقبلته بروح عادية جدا ، كما لو أنها صدفته خارجا أو داخلا من باب في الجامعة • ولقد وجـدت ذات الكلمات العـادية ترددها له ، بل ذات الحركات ، بل ذات المواقف ، التي لا معنى لها على الاطلاق ، سوى أنها ردود فعل رتيبة ، كما لو أن محمود رجل يعبر بحياتها سـريعا ، أو أنه يمر بعتبة هـذه الحياة دون أن يجذب فيها أي وتر أصيل •

وبعد قليل ، وعندما اجتمعت العائلة ، وملأت الجماعة ردهة البيت الريفي وغرفه التي فتحت أبوابها على الردهة ، وانطلقت الضحكات والاقاصيص المسلية ، وعـلا صيـاح الاطفال ، وأصبح محمود هكذا غريق هذه الجماعة ، تزحمه أساليب حياتهـا •• كان يحلو لليزا أن تراقب انفعالاته ، اضطراباته •• هذا السلوك اللطيف الدمث الذي بدأ يحاول أن يتلبسه ليستطيع أن يبدو أكثر انسجاما مع أفراح مضيفيه ، ومع المناسبات التقليدية التي تردد عادة في مثل هذا الاحتفال •

وكانت تكتشف ، بين لحظة واخرى ، أن محمود يضحك ، يضطرب ، يتحرك مع رقصات الاطفال ، ينظر الى هذا الوجه ، غير نظرته الى ذلك الوجه الآخر • وأنه أسمر خمري ، وأن شعره أسود فاحم ، وأن ابتسامته وديعة ، وأن ذراعيه قويتان ، وأنه يقوم على بنيان ضخم رشيق في آن واحد ••

ذات الصفات التي رأتهـا مرة في (رنيـه) •• وظلت تسامرها ليلة بعد ليلة ، الى أن التقيا في الوحـدة والظلمة والتحسس الشبق المجنون ••

ــ أواه •• دعني •• انك ثقيل !

ــ أتحسبينني أبلها ؟ أنا أعرف هذا الجسد من أية مادة نارية عجن ، والتف ، وتلوى •• أعرف العينين السوداوين •• والنداء المظلل المبحوح •• وهذه الهضبات الرمانية المشبعة بحـرارة الشمس •• الشمس التـي لا تستطيع أن تمس الاشياء الا بواسطة أشعتها من بعيد •• واذا مـا اتحدت بشيء أذابته •• وتنفث حريقها المسلول ، وتنزع لحمها من فمه •• ولكن شعرها ••

ولكنه يتابع :

ــ الظلام كله تأسره يدي ، موجة الشعر أجمدها حولي •• أربطها حول عنقي •• أموت ••

ــ ما عرفتك الشاعر •• أنت سكران وكفى !

وتسرق عضوا آخر لها •• ويبقى •• أنه يموت ويمسك بشيء منها أبدا !

* * *

وتنفلت ليزا واقفة وقد زفرت تنهيدة ملسوعة • ولكن محمود ما زال شاردا ، ضائعا بين خيوط القبس والدخـان في المـوقد الريفي الكبير • وتنتبه الى ذاتهـا ، فتعود الى جلستها الاولى ، وقد أحست ثقل نقطة الصمت في أعماقها ، تجذبها الى كثافة واستقرار لا حد لهما ، كالجبل ذاته ، مرة أخرى ••

وكان الفجر بدأ يعانق صقيع الثلج في الخارج •

وتابع محمود :

ــ لا شك أن كل شيء ينتهي الى صقيع ، الى هباب ، الى فراغ أجوف من كل ذرة ثقل •

ــ أو تخشى الصقيع ؟ أن تكون يوما هبـابا أو فراغا بلا ثقل ؟

ــ ان الرسالة هي التي لا تبـدأ ولا تنتهي •• انهـا لا اعداد ، ولا ذكريات ••

ــ وكذلك كل كلمة في القاموس يا محمود •• كل كلمة صالحة للاستعمال ، ولكنها وحدها باردة •

ــ ينبغي أن ننتصر ! أن نعطي الكلمة وجودنا ••

ــ ولذلك تتجاهلني •• ألا نك تحس بشيء من اللاتوازن بين كلمتي ووجودك ؟

ــ بل أعرفك ! ان الطريق الصاعدة ذاتهـا تؤدي تارة الى الذروة ، وتارة الى الهاوية • ونحن ما زلنا في منتصفها بين الناهيتين ••

ــ أتكون اذن بلا حب ؟••

ــ المسألة هي اننـا بلا مصير ، فكيف نكون بلا حب أو بحب ؟••

ــ أليس هنـاك ثمة من براءة مخلوقة ؟ ألا أصنـع

براءتي ؟٠٠ أأكون عندك القذرة دائما ؟

ـ لا محل لعادات الاخلاق اليومية عندي ٠ انني أعرفك من حيث أنت موجودة ملء حواسي ، لا كما ينبغي أو كما لا ينبغي ، بحسب هـذه القيمة أو تلك ٠٠ المعلقة دائما في فراغ التجريد والوهم ٠

ـ لقـد انتهى العيد ٠ نام الجميع ٠ استيقظوا ، وأتى الفجر ٠٠

ـ والموقد ابتلعت أحجاره دفء ليلة كاملة وعيد فريد (وعادت باردة كما كانت) ٠٠ اننا هكذا لا نعرف ماذا نريده والطريق الواحدة اما أن تقودنا الى ذروة أو الى هاوية ٠٠

* * *

كان محمود بوده أن يكف عن التدخين ، وأن يتشبث بجمود قامته ، وقد استندت الى كـرسي مريح في مقهـى الجامعيين قبالة الجامعة ٠ وملء المقهى كان صخب الجاز يحطم كل حاسة ويضغط أعصابها تحت أنيابه ٠ وما أن أنهت ليزا رقصة ، حتى هرع اليها محمود يسألها الرقصة التالية ٠ وقد جمدت ليزا لحظة ، ولكن رنيه كان يقف بينهما لاهثا من أثر الرقصة الماضية ٠

وعندئذ برز الى مبـادهته ذلك الوقت الطويل الذي قضاه منتظرا فيه أن تعود ليزا مرة أخرى الى المقهى بعد أن خيَّب أملها في تلك الليلة الطويلة الباردة أمام موقد ريفي بخيل ٠ وخلال تلك الفترة سمع عن ليزا أشياء كثيرة تدور كلها حول أن هذه الفتاة اللعوب قد وجدت لنفسها مغامرة جديدة في بحران السياسة ، أو ما يدعونه النضال العقائدي ٠ وبعضهم يمدح فيها بعض بطولات رائعة ، وبعضهم يعـزو ذلك الى مجرد حماس مصطنع ٠

ولمحت ليزا ذلك الانتظار في ملامح محمود ، طافيا عليه شيء آخر لم يعد يمكنه أن ينكره بعد الآن ٠

وكرر محمود سؤاله لها للرقصة التالية :

ـ أتسمحين ؟

ـ هل تعلمت الروك أندرول ؟

ـ أظن ذلك ، كما تعلمتِ أنت الاشياء الاخرى ٠٠

ـ ولكني ما زلت أحب أنَ أرقص مع رنيه ٠٠

والتفتت الى رنيه بنظرة صاعقة ، وتشابكت أيديهمـا بحركة عصبية عنيفة ، ودارا مع الجميع على ايقاع وحشي صاعق ٠

تغريدة القروي في يوم تكريمه – بقية –

ما أبعد النقطة السوداء عن صحفي
وما أعز التقاء الذال واللام

آمنت بالنصر ايمان الذي لمست
كفاه لاخارص بالغيب رجام

خروشوف كنت على الأفواه أغنية
فـلا تبيعن تمداحـاً بتذمام

عاطاك ناصر كأس الود صـافية
وجل كأسك عن ريب واتهام

تأبى العروبة أن ننسى الصديق لكي
نرضي العدو ويأبى دينها السامي

والحق لم يعل الا بعد أن ضربت
الطاف ربك هـداماً بهدام

قميص بغـداد لم تـبرح مزررة
بعروة تتحـدى الف مفصام

ما أقرب الوحدة الكبرى مبخرة
أحـلام كل شعوبي وقسام

* * *

سيان بعد التلاقي يا بلادي لو
خلدت أو حكم الطاغي بإعدامي

أما رجعت ؟ ألم أنشق هواك ؟ ألم
ألثم ثراك ؟ ألم أسمعـك أنغامي

احس بالراحة الكبرى كأني ، قد
طرحت في البحر عني كل آثامي

الشاعر القروي

عرس العروبة

شعر
محمد جنيدي

خضب يمينك بالعطاء واعصب جبينك بالضياء
وامدد جناحك فوق متن الريح ... فوق الكبرياء ...
ومر الذرى ... تسجد على قدميك في ذل الاماء
والغيمَ في كبد السَّماء يجئك من كبد السَّماء
والصخرةَ الصماء ... تفجر قلبها شلال ماء
ومر الثرى ... يفرش لك الدنيا بألوان الرَّخاء
واحطم قيود الذل ، واستبقِ العلاء الى العلاء
وافتح نوافذك الحبيسةَ للضياء ... وللهواء
لنسائم الحرية الصهباء من فجر الاباء
واقرأ على سمع الأنام هدى رسالات السماء
يا شعب ... يا شعبي العظيمَ ، ويا نبيَّ الانبياء

* * *

يا صانع التاريخ ، يا بطلَ الفتوحات الوضاء
يا واضعاً حجرَ الأساس ورافعا صرحَ البناء
بوركت تعطي ... لا تريد من العطاء سوى العطاء
المجد درتك اليتيمة في رقاب الأصفياء

* * *

ان شئت صيَّرت الحدودَ الكاذباتِ الى هباء
وأقمت عرسك في رحاب المجد ... في قمم السناء
عرس ... يمد الى الشقاء يداً ، فتذهب بالشقاء
ينسى به المتقطعون دجى القطيعة والتنائي
والسائرون الليلَ ، ما لاقوه من طول العناء
ويرى به المستضعفون بشائرَ الأمل المضاء
فيصفقون مع الصباحِ ، ويرقصون مع المساء
ولقد تلفُّ الأرضَ لفَّ الموتِ ، أكفانُ الشتاء
فاذا الربيع أتى يناديها ، أفاقت للنداء
واذا بها تعطي الحياة ... تصبها صبَّ الدِّلاء

* * *

عرس العروبة ... زغردي ياشمس ... واخفق يالوائي
شلَّت يد حملتك غير يدي ، لخطب أو بلاء
خذ مقلتي ... أرى النجوم تحيط بي ، تحدو حدائي ..
واجعل فؤادي في جناحك خفقةً ، واحمل رجائي
واغسل بجرحي جبهة الشمس المدلة بالسناء
وازرعه في أفق العروبة ... للجياع ، وللظماء
واقشع به للناس أستارَ الضلالة والعماء
أنا شمس مشرقهم ... وينبوع المودَّة والاخاء
ولقد تقض جراحهم نومي ... تعكر لي صفائي
فأمد نحو الاشقياء يداً ... ونحو الابرياء
هذي ، تبشر بالخلاص ، وتلك ، تورق بالعزاء

* * *

أمن العدالة أن أجوع ، وأن أبيت على الطواء ؟!..
أمن العدالة أن أهيمَ بلا فراش أو غطاء ؟!..
وسواي ، ينشر فوقه ظلي ، ويقطف من جنائي
ويمص من كأسي ، ويلبس في المحافل من كسائي
حقي ، وعين الله مبصرة ، وفي زندي مضائي
هذا ندائي ... فاشهدي يا شمس بعثي وابتدائي

* * *

رنَّ النداء ، فهاج بي طربي ... وهاجت كبريائي
عادت لي النعمى ، وعاد لأمتي ثوب البهاء
هذا يغني للحياة ... وتلك ترقص للغناء
والحي !.. يملؤه الصغار ... تواثبوا مثلَ الطلاء
بحثوا عن الثوب الأجد ... وفي جيوب الأولياء
اليوم يومهم ، وفجر غد ، ووطفاء السخاء ...

* * *

فرحي !.. أكاد أجنُّ من فرحي بأيام اللقاء
أزهو على النجمات ... أحسبهنَّ تعرج من ورائي
ونسيت ... لا أنا ما نسيت الجرح يقطر من دمائي
ما زال في وطني الدخيلُ يدسُّ سماً في وعائي
لي اخوة ، يسقون في الاهراس ، حنظلة الاناء

لي اخـوة ، يلقـون في الأردن ، داءً ، أيَّ داء
ومشردو حيفا على وجـه العـدالة ، أقربائي
وعمان !٠٠ بيتي في عمان دمرّوه ٠٠٠ وفي اللواء ٠٠٠
أنا ما نسيت ٠٠٠ ولن أرى الا بوحدتهم هنائي ٠٠٠

* * *

ونظرت يا شعبي ٠٠٠ أرى التيجان فوق الأدعياء
لم لا تـدك عـروشهـم في قعر مظلمة خـواء
تركوا على التـاريخ باسمـك ، مثلَ ريح الخنفساء
ومضـوا يسوسـون البـلاد ، بألف ثوب من رياء
الـراكعين على عتاب الاجنبي ، بلا حياء ٠٠٠
والـرافعين عليك سـوطهـم ، لظلم وافتـراء
مدوا لك السمَّ الزعافَ ٠٠٠ وللدخيل يدَ الولاء
ومضـوا يحوكون الخيانة والتآمر في الخفاء
من كـل أفعى لفها صـل ، على كأسِ الدهاء
قل للافاعي ٠٠٠ ضمها حلف يهدد بالفنـاء
بغداد أكرم أن يسمى باسمها ، سقط البغاء ٠٠٠

* * *

مهلاً صعاليك السياسة ، كل زيف لانتهـاء
مـا ليس تكلؤه الشعوب ، فلن يكون الى بقـاء

* * *

قل للبغاتِ ٠٠٠ ألا اتركوا للنسّر أجواء الفضاء
للفارسِ العطاف في ساح البطولة والفداء
للأسمر العـربي ، يملأ قلبه لحنُ الـوفاء
من عاش في البؤس السنين ، ونام في الارض العراء
من قلب هـذا الشعب ٠٠٠ من قلب التعاسة والشقاء
فجرت بركان النضـال ، فبؤت بالنصر الجزاء
حطمتَ في أيدي الغزاة ، وما صحوا ، كأس الرَّجاء
ونزعت عن أحلامهم ثوب الوقار من الـدهـاء
وضربتهم في « بور سعيد » ، بكل صادقة اللقاء
واليومَ ، تبعث مجدَ أمتنـا ٠٠٠ تبشر بالضياء
أبشر ٠٠٠ فرايتك الظليلة ، لن تعود الى انطواء
موج المحيط ورمل مكتننا ، على وشك التقاء

محمد جنيدي

شكراً

قصة بقلم

محمد حيدر

سيدي الطبيب :

شاء علمك الغزير ، يا أكبر غبي على الارض •• أن أحل ضيفا على مشفى المجانين ، لمدة يقررها ذكاؤك النادر وتبحرك العظيم بأسرار النفس !••

ولا زلت تزورني كل يوم ، وعلى صفحتيك ابتسامة بلهاء ، لتأخذ مني « حقائق » جديدة تؤكد بها جهلك العبقري ، وتضيفها لقائمة السخافات العديدة التي يزخر بها صندوقك الخشبي •• يا حضرة النطاسي الكبير •

أعرفت أي شيء أريد ؟•• رأسك الفارغ ، ذلك الذي ركبوه سهوا عليك ، ولو أنصفوك لوضعوا لك أربع قوائم وأذنين طويلتين •• لتدخل فصيلة البهائم والهوام •

وقد أعطاك تمنعي عن الكلام ، فرصة ذهبية لتشمخ مزهوا برأسك ، مؤكدا للمرة الواحدة بعد الالف •• أنني مجنون !

لقد شاء غباؤك الفذ ، أن يختار واحدا من العقلاء ليضيفه الى زمرة المجانين ، قائلا بلهجة الرثاء ، وبتعبير لا يخلو من التحذلق الرقيع •• بأنني مريض نفسي •

انني لأضحك •• وأكب على قفاي من الضحك ، كلما تذكرت ••

أحقا تعني ما تقول ؟!

أين يا ترى هذه النفس الذي أصابها العطب والفساد ؟ وهل جنابك الموقر « ورشة » لتصليح النفوس ؟

أين ؟!••

أهي في اليدين التي أكبت بهما الآن •• أو هي في مخزن الدم ، أريد ما يسمونه « القلب » •• أم تراها في الرأس ، في الغشاء الاسمر ، والملايين من التلافيف !•• أعني ماوضعوا عليه بطاقة عنوانها « الدماغ » ؟

أهي في شيء من هؤلاء !! في الجسد كله •• في أي مكان منه ؟

أو هي شيء خفي •• لا يراه الا من أوتي نعمة البلادة والعماء ، مثل حضرتك المصونة ، يا فريد العصر ويا فريدة الدهر ؟

أجبني أيها العالم العلامة ، والجهبذ الفهامة ، فقد بحثت حتى عييت !•• فكيف اكتشفت – يمين الله عليك – بذكائك الوقاد ، ذلك السر المبهم •• ما عجزت أنا عنه ؟!

أقصد : النفس •

انني لأضحك •• وأستلقي على وجهي من الضحك ، كلما تذكرت ما تسألني عنه !••

* * *

مجنون !!

ربما لم أكن مجنونا أول الامر • ولكن هذه الفكرة • ونظراتك المريبة ، وضحكات الناس علي •• تكاد ترميني بالجنون • لقد نمت في رأسي فكرة الجنون •• واستطالت بطريقة خفية ناعمة ، حتى سدت منافذ العقل •• ثم عششت وفرخت •• وباضت في كل خلية منه ، فصرت من أشياعها المؤمنين ، والمتحمسين لاثبات صحتها لو لزم الامر !••

مجنون !! هه ••

لقد أرسلوني اليك ، ومفروض أنني مثل حضرتك •• بحر من الجهالة والنور • وكيف لا أكون ؟ وأنا مروض كبير يشار اليه بالارجل والبنان !•• مروض لقطيع من التيوس ، نصفه من الاناث •• والآخر من الفحول •

ولكن لنمسك زئبق الخيوط ، فربما كنت مجنونا دون أن أعلم :

ما اسمك يا بني ، ومتى ولدت وكيف بدأت في المشي !! وهل تذكر أنك كرهت أبويك •• أو تبولت في الفراش ؟ تذكر •• تذكر •• كل شيء وحدثني يا بني !

(أي دخل لهذا بما جئت من أجله ؟ ولماذا يهمك التبول والمشي ؟!)

•• كنت أروي لك أحداث الطفولة ، لأنها – حسب غبائك الغزير – مفتاح لكل الاسرار والمغاليق • كنت أرويها وأنا مضجع على مقعد مريح ، والضوء يتماوج في الغرفة ، ويذبل •• مهلا على مهل • وفجأة تمزقت أمامي الجدران ، فرأيت مخلوقات طويلة مقطوعة الرؤوس ، بأصابع كالخناجر • وأيديها كفروع الاشجار !! والغريب يامحترم ، تلك الجمجمة

الرهيبة ، التي رأيتها تقفز بحرية على الأجساد •• بعينين مفتوحتين يتصاعد منها اللهب والدخان !•• وكانت تشبهك الى حد بعيد !•• عند ذلك صرخت من الرعب ، وأغمي علي •

واستفقت بعد ساعات ، فاذا بي على سرين أبيض ، وحولي زمرة من الممرضين •• وعلى نظراتهم كلمة : « مجنون » •

كنت في مشفى المجانين •• آخر محطة في طريق العقل بفضل غبائك الفذ الفريد !•• وأخذت تزورني كل يوم ، وأنت تريدني أن أحدثك عن الحياة •

(أتعنيك طفولتي الى هذا الحد ، وأي شيء منها تريد ؟)

اذن اليك التفاصيل :

انني من أسرة عجيبة ، لم تسمع بمثلها خلال تاريخك الطويل !•• وصداقتنا مع الموت والجنون قديمة العهد •• بدأت بأحد أجدادي الذي مات في السجن !! وجدي الآخر •• كان به مس فادعى النبوة والكرامات • وكان معجزة فريدة ، مخزنا من مخازن الحكمة •• وأكبر ألمعي في الاحتيال وتمزيق الاعراض ، فعلقوه على شجرة وشنقوه •

وأخي •• كان عبقري التشرد ، فهام على وجهه في الليل ، ولم يعد الى اليوم • وأبي •• كان ولوعا بالتجارب ، فأشعل النار في البيت ، ومات ضحية العلم !•• وأنا آخر فرع من فروع الشجرة المباركة ، على قيد الحياة •• ضيف على المجانين •

وفي لحظة من اللحظات •• واتت أبي فكرة ألمعية ، أشرقت في ذهنه كالبرق ، فصفق لها طربا بيديه • أراد أن يختبر أمورا لا تخطر ببال •• تجارب على الهضم !!•• فعلقني في الهواء ، رأسي الى أسفل •• ورجلاي تشمخان الى العلاء •

كان ذلك في الصغر •• وبعدها أدخلوني المدرسة ، منبع المعارف والحكمة •• لأسجل فيها بأحرف من تنك ونحاس ، تاريخ أكبر غبي شهدته الدهور !!

كنت موهوب الغباء يا سيدي الطبيب ، فقضيت ثماني سنوات بدلا من الخمس •• وكان نصف الدرس يمضي في الضحك علي ، ووجهي مصلوب على الجدار ، برجل واحدة ويداي مرفوعتان في الهواء •• راية الهزيمة الابدية •

أما بقية الدرس ، فأقضيه سارح الذهن •• وأنا أحلم بعظائم الامور ، أضيفها الى رصيد المفخر في مجد أسرتنا العريق !••

وبقيت أحلم حتى العاشرة •• وربما كنت سأقضي عمري سارح الذهن ، لولا أنني رسمت تاريخ التحول •• رسمته بيدي !•• وعندها تبدل كل شيء •

أجمل مخلوقة على الأرض ، بأحداقها المظلمة ، وفمها الجليدي النافر •• يا فم الذئب !

أختي !•• يا سيدي الطبيب ، قتلتها دون أن أعلم ، فقد سقيتها سما للصراصير • ورأيتها تثب في الفضاء •• وكنت صغيرا ذلك الوقت ، وظننتها تمزح ••فضحكت بكل قواي !•

ثم ارتمت على الارض ممزقة الاحشاء ، في عويل كالكلاب • ماتت •• وعيناها على عيني •

ومن عجب أنني نسيت ، نسيت الخطيئة في قلبي ويدي المغسولتين بالدم • ولكن لا شيء يستطيع أن يمحو الخطيئة والدم •

وخرجت من المدرسة ، ويمناي تلوح في الهواء ، وفي يسراي شهادتي الابتدائية •• جواز المرور !!

(نسيت أن أقول انني أعسر ، أيهم ذلك علمك الغزير ؟)

* * *

والحياة تأتي بالاعاجيب !!

نبهتني العبقرية ، أين كانت تختفي يا ترى طوال ما مضى من الايام ؟!

قفزة واحدة •• قطعت بها عدة سنوات من زريبة العلم ، وأعقبتها خطوة صغيرة ، فاذا غبائي الوقاد يمر بالسنة الاخيرة •• آخر « محطة » للعلم ، دون أن أجهد الذكاء الكامن ، المشحون بالاسرار •

أعرفت ؟•• الدرة المكنونة •• في تاجي الفارغ ، رأسي يا سيدي الطبيب !

وفوق ذلك تقول بأنني « مجنون » !!••

انني أحني الهام ، اجلالا •• وساخرا من تهذيبك الرفيع ، عندما تقول بأنني مريض ، وبالنفس يا محترم ، يا أضخم الطبول •

أحقا أنني مريض ؟!•• وأنت جاد في الاتهام !!

هه •• تمهل ، فعندي ما أملىء به صندوقك الخشبي ، رأسك الفارغ ، ذلك الذي ركبوه سهوا عليك •

بلغت آخر متاهة في سراديب العلم ، ملجأ الكسالى

والمتبطلين •• أعني : « الجامعة » حسب تهذيبك الابله الرقيع !!

وخرجت منها •• من تكية الدراويش ، ويمناي تلوح في الهواء ، ويسراي تحمل « الفرمان » •• شهادتي الجامعية أغرب تصريح الى الخبز والتسول في تاريخ عالمنا الطويل •

خرجت من الجامعة ، ولكن رأسي كان كالغرفة المخلوعة النوافذ ، وكل ما قرأته في الكتب ، كان يتسرب من أبواب خلفية ، في جهة مجهولة من الرأس !!•• دون أن أؤمن بشيء على الاطلاق !

وتغرق المسافرون •• وبقيت وحدي على الرصيف ، وقلبي مثقل بالذكريات : ملابسي الجرباء ، والجوع والندم• وحب ضاع من الخريف •

(أيهمك أنني أحببت ؟) أحببتها سنوات ، وبكل ما أملك من الدم •

بقيت وحدي على الرصيف ، أودع ضجيج العربات ، وأرقب دخان القطار •••

* * *

ثم استقر بي التشرد ، فأصبحت في « قائمة » المدرسين قادة الشباب الصاعد الى الوراء ، ورعاة جيل من التيوس !•

أرأيتني يا سيدي الطبيب •• والبرامج والكتب ، وألف دفتر حوالي ؟

انني لأضحك الآن ، وأستمر في الضحك حتى أنكفيء على قفاي ، كلما تخيلت أنني أصبحت حارس الموازين ، وفي يدي المصير •

اضحك معي يا مبجل !! فقد ارتفعت من الوحل ، من مقاعد الدرس ، برجل واحدة •• ويداي تخترقان الهواء ، ارتفعت حتى صارت معي الموازين •

وأخرج في الصباح بخطى وئيدة ، وأولادي على طول الطريق ، يرفعون الايدي بالتحية ويهزون الرؤوس • وأنا أوميء بكبرياء وغطرسة ، كأنني سليل الاباطرة العظام !•• أرأيت الى الحياة ، كيف أنقذتني من الوحل !

انها عبقريتي المصونة ، أثمن لؤلؤة في تاجي المرصع بالمفاخر والحماقات •

رأسي يا سيدي الطبيب !

ومرت الايام •• عدة أشهر في المدرسة ، وأنا خلالها أنسج المأساة • كنت أفرز الحقد الذي تغور في أعماقي من الصغر •• فيترنح الميزان في يدي • وحسب هواي ، أعطي الكتاب باليمين أو الشمال • فأرفع من أريد ، وأسقط آخرين بلا حساب •

كانت طفولتي كالدبابيس الخفية •• ثماني سنوات وأنا أحتضن المدرسة الابتدائية •• بشغف بين ذراعي !•• لمجرد نزوة طارئة من سيد الجيل ، معلمي العظيم !

من يلومني اذا صرت « نسخة » عنه ؟! أترى في ذلك شيئا من الجفون ؟!••

كنت أفرز ما شربته من الحزن والحقد ، ولكنني •••

عفوا •• أقلت لك انني كنت أنسج المأساة ؟

لقد أحببتها من البداية ، منذ أول يوم رأيتها فيه • ولا غرابة يا سيدي الطبيب ، فأنا من الذين يبيعون العمر في لحظة •• ويبصقون بعدها على الحياة • أحببتها من البداية عندما دخلت الدرس بهيئة عابسة ، وعلى وجهي « بطاقة » مدرس •

كانت تجلس في أواخر الصف •• في المقعد الاخير ، كرمز للخطيئة والجمال ! وما أن احتويتها بعيني ، حتى شهقت • شهقت يا سيدي الطبيب !!••

أختي •• بأحداقها المظلمة ، والشفاه الجليدية النافرة ، فمها الدامي •• يا فم الذئب !••

أحببتها من البداية ، وكان الحب يقطر من أحداقها الواسعة ، فتشربه أعماقي كالرمال !

كنت أقسو عليها خلال الدرس والمذاكرات ، وكم تمنيت لو تثور !•• كنت أرئد أن أحطم الكبرياء ، وأهدم بناءها الراسخ ، لأخرجها من الصمت الطويل ، وأفجرها من الاعماق• ولكنها ظلت في ثباتها المطلق ، هادئة كالموت •

هذه الملعونة ••!! أي تمثال من الغطرسة والجليد ••

« شكرا •• أستاذ !! » هذا كل ما تقوله• ومهما قسوت حتى ولو أعطيتها صفرا •• كانت تقولها لي على الدوام •

و « شكرا ••• » هذه ، هي التي قتلتني أيها الطبيب •

وانتظرت حتى جاءها الفحص الاخير ، فرصة العمر •• وآخر سلاح في يد العبد الفقير !!

كانت مني على خطوات •• وكانت عيناي تتركزان في أحداقها الواسعة المتعبة •• كأفق لا نهائي من الظلمة والليل!

كنت أرقب وجهها المتعب •• وأصابعها التي تمر في تشنج على الورق • وعندما كانت عيناها تلتقي أحيانا بعيني •• كنت أرى فيهما الرعب ، والضراعة والحزن ، كان مصيرها

قادة الفكر في المزاد

للكاتب الساخر : لوسيان

ترجمة : سعد صائب

تعـريف :

ولد « لوسيان » عام ١٢٠ للميلاد في مدينة « سميساط Samosate » السورية الواقعة على نهر الفرات ، ولما شب أتقن اليونانية كأحد أبنائها الى جانب لغته الآرامية ، وانكب على دراسة الادب والبلاغة والفلسفة ، فلم يبق مـذهب فلسفي الا وتمثله وهضمه وتأثر به ، فتراه حينا سفسطائيا وأحيانا كلبيا ، أو رواقيا أو ابيقوريا أو شكاكا ، عـرف بسخريته اللاذعة ، وهجائه المقذع ، وهجومه العنيف أشد العنف على الآلهة والفلاسفة والشعراء والمؤرخين الذين سبقوه ، سخـر من شعرهم وفلسفتهم ، ونقـد أفكارهم والمذاهب التي نسبت اليهم نقـدا لاذعا مرا . وشن حربا لا هوادة فيهـا ولا لين على العـادات والتقاليد والفروق الطبقية التي سادت عصره ، وبالرغم من أنه أدرك المسيحية وعاش في ابان بزوغ فجرها ، وشهد عن كثب صـراعها مع الوثنية ، فقد ظل ملحدا مغرقا في الحاده .... نظم الشعر وكتب القصة ودبج المحاورات الساخرة الهازلة في اسلوب

←

في يدي ، وكنت خلالها أفرز الحقد الذي اختزنته ...

الحقد الذي تقادم به العهد ، فصار مرا كالنبيذ .

وانتهى الفحص .. فتلاعبت بابرة الميزان !! وأعطيتها الكتاب ، وكان هذه المرة بالشمال .

هه ..!! لقد ارتفعت من الوحل وصـارت الموازين في يدي . فوضعتها في آخر « القائمة » مع الراسبات ، لأحتفظ بها الى دورة قادمة .. لأجعلها تجثو على قدمي .

وتوقعت أن تفعل ما يقرب من الجنون . أن تجيئني وفي عينيها الرجـاء . ولكنها صفعتني بهـدوء : « شكرا .. أستاذ » .. وهذا ما لم أدخله في حسابي يا معدن الغباء !

وبحقد ، وخيبة مـريرة ، رأيتني أقول : « آسف .. الدورة القادمة » . ومرة ثانية ، من فمهـا الدامي .. فم الذئب : « شكرا .. لا فائدة ، فات الاوان » !..

لا فائدة ؟!.. وكيف لي أن أعلم ما تريد ؟

وانتحرت مساء ذلك اليوم . وأتاني الخبر ، فعـدوت مجنونا الى المدرسة . ورأيتها تثب في الفضاء .. وحسبتها تمزح ، فضحكت بكل قواي ! ثم ارتمت على الارض ممزقة الاحشاء .. في عويل كالكلاب .

أكان لي أن أدرك ، أنا سليل الوحل .. ونتـاج أسرة من الجنون والموت ، أية هوة قد احتفرتها بيدي !!

ماتت .. وعينـاها على عيني . قتلتها دون أن أعلم ، فقد سقيتها سما للصراصير .

* * *

لقد احتفظت منذ طفولتي في السراديب الخفية ، بمئات من الخفافيش والغربان ، وقد أطلقتها هذه الملعونة . ومـا ظننت أنه لايطال ، هدمته بنظرة .. فتمزق الستار ، وانطلقت مئات الغربان والخفافيش .

جننت !!..

« شكرا ... » وأحداقهـا الليلية الواسعة ، وفمهـا الجليدي النافر ، فمها الدامي .. يا فم الذئب !.. هي التي قتلتني يا سيدي الطبيب .

* * *

يقول جهابذة الرياضة .. ان الخط المستقيم هو أقصر الابعاد .

يا لتفاهة العلم !..

لماذا اللف والدوران ، والصعود الى أسفل .. والنزول الى فوق ؟ من البداية ، لو طلبت صراحة ما تريد .

مثلا .. لو سألتني باختصار : لماذا جننت يا ولد ؟

لأجبتك باختصار : « شكرا ... » وأحداقهـا الليلية الواسعة ، فمها الدامي .. يا فم الذئب !..

هي التي قتلتني يا مزرعة الغباء .

جميل وتعبير قوي واداء حلو ، فذاعت شهرته ، واسترعى الاعجاب لا في عصره فحسب بل وفي العصور التي تلته •

ولقد طوف في أرجاء آسيا الصغرى ، وايطاليا وفرنسا واليونان يحاضر أنى حل ، ويحبر الخطب لمن يشاء لقاء أجر اسوة بالفلاسفة السفسطائيين • وأقام في أثينا ردحا من الزمن يتتلمذ على الفيلسوف « ديمونيقوس » ثم بارحها الى أنطاكية ليمارس فيها المحاماة •• وبعد أن تقدمت به السن وانحدر الى الشيخوخة ولاه الامبراطور الروماني الرواقي « ماركوس اوريليوس » حاكما على مصر ، وقيل انه توفي فيها حوالي عام ٢٠٠ للميلاد •

نقلت آثاره من « القسطنطينية » الى ايطاليا عام ١٤٢٥ م وطبعت لأول مرة في فرنسا عام ١٤٩٦ م ثم ترجمت الى أغلب اللغات ، وآخر طبعة كاملة بالفرنسية في ثلاثة أجزاء قام بها الكاتب الفرنسي « آميل شامبري Emile Chambry » •

ونحن في سبيل انجاز كتاب عنه ـ سيصدر قريبا ـ ندرس فيه عصر « لوسيان » المواطن الثائر وحياته العاصفة وآثاره الرائعة الفذة ، وننقل الى العربية بعضا من محاوراته ، وفاء منا لهذا العبقري المجهول ، الذي احتفى به الغربيون ، فاغتنوا من عبقريته أيما غناء ، وأهملناه نحن فضاعت من يدنا ثروة فكرية نادرة لا تقدر بثمن • ويكفي أن الفيلسوف الالماني « هردر » أوصى بها الشاعر « غوتيه » صاحب الاثر الخالد « فوست » كما أفاد منها « فولتير » و « أناتول فرانس » في نهجهما الساخر ، واسلوبهما اللاذع اذ اقتفيا أثره ، وقلدوا اسلوبه ، ونسجا على منواله حتى سمي « فولتير » بلوسيان الساخر •

سعد

شخوص الحوار : زيوس كبير آلهة الاولمب ـ هرمس ـ فيثاغورس ـ ديموقراطيس ـ هرقليطس ـ سقراط ـ ديوجين ـ قريسيب ـ ابيقور ـ فيلسوف بيروني [1] ـ مشترون من اجناس مختلفة •

زيوس : انت ، يا من نضدت الموائد ، واعددت القاعة لاستقبال من سيجيء ، خذ قادة الفكر ونسقهم بحيث ينتظمون واحدا اثر آخر ، واعدهم اعدادا حسنا ، وهيئهم التهيؤ الصحيح ، كيما يجتذبوا اكبر عدد مستطاع من الشارين ••• اما انت يا هرمس فكن المنادي ، وادع الشارين ليفيدوا من حظوظهم ، وليجيئوا الى قاعة المزاد ، لاننا سنعرض عليهم مذاهب فلسفية من كل نوع ، وقادة فكر من كل صنف ، وان لم تكن لديهم دراهم ليدفعونها على التو واللحظة ، فسنمهلهم ليسددوا ما عليهم في العام القادم بعد ان نستلف منهم العربون ••

هرمس : لقد أتوا زرافات زرافات ، ولم يعد في مقدورنا التأجيل ، لان عملنا لن يحتاج الى التريث •

زيوس : حسن ، فلنبدأ اذن المزاد •

هرمس : من تبتغي دعوته منهم ليكون اولهم ؟

زيوس : هذا الرجل ، ذا الشعر الطويل المسدل ، هذا اليوني [2] الذي يبدو انه شخصية مرموقة •

هرمس : هلم ايها الفيثاغوري ، اهبط وأر الجميع وجهك •

زيوس : ناد عليه •

هرمس : ايها السادة : اننا نطرح للبيع حياة من اروع الحيوات ، وابعدها في الاحترام ، فمن يشتريها ؟ من تراه يبتغي السمو فوق الانسانية ؟ من تراه يريد معرفة انسجام العالم ، والحياة من جديد ؟

شار : يبدو ان له سمتا ينبيء عن شيء من النبل ••• ولكن ما مبلغ قدره الاكيد من المعرفة ؟

هرمس : انه يجيد الرياضيات ، والفلك ، والسحر كما يجيد الهندسة والموسيقى والشعبذة ، ولعلك ترى فيه عرافا ليس له من مثيل •

الشاري : أيمكنني سؤاله ؟

هرمس : سله ، وليسعفك الحظ •

الشاري : من أي بلد انت ؟

الفيثاغوري: من صاموص [3] •

الشاري : أين تعلمت ؟

الفيثاغوري: في مصر ، جوار حكمائها •

الشاري : حسن ، ماذا ستعلمني ان انا اشتريتك ؟

الفيثاغوري: لن اعلمك شيئا ، ولكني سأدعك تتذكر •

الشاري : كيف تدعني اتذكر ؟

---

(١) ـ من أشياع بيرون وهو فيلسوف يوناني ، مذهبه التشكك في كل شيء •

(٢) ـ يونيا مقاطعة في آسيا الصغرى •

(٣) ـ صاموس : جزيرة يونانية في الارخبيل •

الفيثاغوري: اطهر في البدء روحك ، وأزيل الاوضار العالقة بها .

الشاري : حسن ، لنفرض انها طهرت ، كيف تدعني اتذكر (٤)

الفيثاغوري: ستبقى صامتا اصم زمنا مديدا ، ولن تتفوه بكلمة طوال خمس سنوات كاملة .

الشاري : حسن كأني بك لم تعلم غير ابناء فريزوس (٥) واذاني مهذار ، ولا اود ان ابقى تمثالا جامدا قل لي ماذا سأغدو بعد صمت يمتد خمس سنوات ؟

الفيثاغوري : ستتمرن على الموسيقى والهندسة .

الشاري : اراك تهزل ، اعلي من اجل أن اغدو حكيما ، ان اعرف في البدء الضرب على القيثار ؟

الفيثاغوري: كما ستتعلم كذلك عد الاعداد .

الشاري : اني اعرف الان عد الاعداد .

الفيثاغوري: كيف تراك تغد ؟

الشاري : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

الفيثاغوري: ارأيت ؟ انك حين عددت (٤) خلتها (١٠) وهي في واقع الامر (١٠) لانها المثلث الكامل (٦) الذي هو عندنا بمثابة قسم .

الشاري : كلا ، اقسم بقسمكم العظيم اني لم اسمع البتة كلاما اكثر ألوهية ، ولا ابلغ قداسة مما سمعت الآن .

الفيثاغوري: ستتعلم ذلك توا .. اجبني ايها الغريب ماحركة الارض ، والهواء ، والماء ، والنار ، وعلى أي شيء تدور ؟

الشاري : هل للنار والهواء والماء اذن شكل ؟

الفيثاغوري: بلى ، وهي مرئية جدا ، لان ما لا شكل له ولا صورة ، ليست له حركة ، كما ستتعلم كذلك ان الاله عدد ، وانه عقل وانسجام .

الشاري : ان قولك رائع .

الفيثاغوري: وحين سأشرح لك كل هذا ، سأعلمك انك انت ذاتك الذي تؤمن بوحدانيتك ، لست في الحقيقة كما تبدو .

الشاري : ماذا عساك تقول ؟ أأنا سواي ؟ أو لست انا ذاتي الذي احاورك ؟

الفيثاغوري: حتى الساعة ، انت ذاتك ، ولكنك ستبدو ذات يوم في غير جسمك ، وستعرف باسم غير اسمك ، وبالتالي ستبدو بجسم آخر .

الشاري : أتريد أن تقول انني سأغدو خالدا حين استبدل على التوالي شكلي ؟. كفانا خوضا في هذا الحديث ، ولنتحدث عن نهج الحياة الذي تنتهجه ، فما هو نهجك ؟

الفيثاغوري: لا آكل البتة طعاما فيه حياة ، ولكنني آكل سواه مستثنيا الفول .

الشاري : ولماذا ذلك . أتعاف الفول ؟

الفيثاغوري: كلا ، ولكن الفول مقدس ، وطبيعته رائعة ، ويحوي جميع العناصر ، وان أنت عريت فولة ما برحت خضراء ، فسترى أن شكلها يحكي الشكل الذي عليه خصائص الانسان ، واذا ما طهوتها ، وعرضتها لاضواء القمر لعدد من الليالي فستبعث فيها الدم ، ولكن الشيء الاهم ان حبات الفول تستعمل في النظام الاثيني لاختيار القضاة .

الشاري : انك لم تتحدث الا عن كل ما هو رائع ومقدس ... اخلع الآن ثيابك لأراك عاريا .. أي هرقليطس اني وحقك ابصر فخذا من ذهب ، ويخيل اليَّ انه اله وليس انسانا ، ممايغريني على شرائه .. بكم تبيعه ؟

هرمس : بعشرة دراهم .

الشاري : اني اشتريه بهذا الثمن .

زيوس : سجل اسم الشاري وبلده .

هرمس : يبدو يا زوس انه ايطالي ، يقطن قرب قروطون أوتارانت ، أي انه من اغريق تلك البلاد ، ولم يقدم وحده بل انه يصطحب ما يقرب من ثلاثمائة مشتر .

زيوس : ادعهم وهات آخر .

---

(٤) ـ نظرية التذكر التي تبناها افلاطون ، وعبر عنها في حواره عن مينون .

(٥) ـ هو احد ابناء قريسوس ، وقد كان اصما .

(٦) ـ ان جمع ١+٢+٣+٤ = ١٠ ويبدو منها المثلث الذي يتألف من عشر نقاط يوضع بعضها فوق بعض. ويقسم الفيثاغوريون بالعدد الرباعي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ويبنون كل شيء وفق مذهبهم .

هرمس : أتود ان ادعو هذا الانسان الزري الهيئة المولود بجانب الجسر ؟ [٧] .

زيوس : طبعا .

هرمس : تعال انت .. انت الذي تحمل جرابا ذا حمالة ، وترتدي قميصا بلااكمام ، تعال وادن من المشترين ، أما انتم أيها المشترون فاني ابيعكم حياة رجل فحل ، حياة رفيعة ، كريمة ، حياة حرة . فمن يشتريها ؟

شار : ماذا قلت أيها المنادي ؟ أتبيع انسانا حرا ؟

هرمس : أجل .

الشاري : ألا تخشى من مقاضاته اياك اذ تحول رجلا الى رقيق ؟. انه سيشكوك الى محكمة اثينا .

هرمس : سيان لديه مادام يباع ، لانه يخال نفسه في حرية مطلقة .

الشاري : ولكن أمن الممكن في هذه الحال استخدام انسان زري الهيئة مؤذ ، ليس في الوسع جعله طيانا أو حمال ماء ؟

هرمس : في مقدورك جعله شيئا آخر ، وان انت صيرته حمالا مثلا فستلقاه اشد امانة من كلب وسوى ذلك فقد تسمى باسم كلب .

الشاري : من أي البلاد هو ، وأي مهنة يمتهن ؟

هرمس : خير لك ان تطرح عليه سؤالك .

الشاري : اني فزع من هيئته الوحشية القاتمة ، وقد ينبح في وجهي أما دنوت منه ، فيحق زيوس جنبه عن عضي ..أو لم تر اليه كيف رفع علي هراوته ، وكيف قطب بين حاجبه ، ورماني بنظر شزر مهددا متوعدا وقد بلغ به الغضب مداه واتقدت عيناه شررا ؟

هرمس : انه انيس .

الشاري : من أي البلاد انت يا صاحبي ؟

ديوجين : من جميع البلاد .

الشاري : ماذا عساك تقول ؟

ديوجين : ان من تراه امامك مواطنا عالميا .

الشاري : ولكن بمن تدعي الاقتداء به ؟

ديوجين : هراقليس .

الشاري : لماذا اذن لم ترتد مثله جلد اسد ؟ انك بهراوتك تبدو – في الواقع على شاكلته .

ديوجين : ان جلد الاسد الذي ارتديه هو ردائي الذي امضي به مثله الى الوغى ، اقارع اللذات غير مضطر ولا مكره بل بمحض ارادتي واختياري ، آخذا على نفسي عهدا بتطهير الحياة من الشوائب التي علقت بها .

الشاري : انها لمهمة رائعة ، ولكن أفي مقدورنا القول انك تعرف الافضل والاكمل ؟ وأي مهنة تمتهن ؟

ديوجين : تحرير الناس ، وتطبيبهم مما يلم بهم من ادواء ، وبايجاز فاني ابتغي ان اغدو معبرا عن الحقيقة والصراحة .

الشاري : حسن ايها المعبر الطيب ، ترى ، أي السبيل ستنتهج في تعليمي ان انا اشتريتك ؟

ديوجين : سآخذك مريدا عندي ، وسأبدأ بأن أنزع عنك خورك وتراخيك ، واضمك الى الفقراء ، وألبسك ثوبا زريا ، ومن ثم فاني سأقسرك على العمل والنصب ، وسأضطرك الى النوم الخشن ، وشرب الماء ، واكل ما يقع بين يديك . اما الثراء فان كنت على نصيب منه ، فاني ناصح اليك ان تلقي به من توك في اليم ، ولن تهتم البتة بامرأة أو ولد أو وطن ، لان كل ذلك سيغدو بالنسبة اليك لغوا وعبثا ، وستهجر بيت ابيك الذي نشأت فيه ، لتمضي فتسكن رمسا ، أو برجا صغيرا مهجورا ، أو برميلا ، وستملأ جعبتك دائما وابدا بالترمس والكتب الملأى بالحواشي والمتون ، واذا ما بلغت هذه الحال فستزهو بأنك اكثر سعادة وهناء من ملك عظيم ، واذا جلدوك ، أو آذوك أو نكلوا بك تنكيلا ، فثق بأن لا شيء من كل ذلك يؤذيك أو يؤلمك :.

الشاري : ماذا عساك تقول ؟ أتريدني على ألا أتألم البتة ، اذا ما جلدت بالسياط ؟ أو لا يكون لدي في هذه الحال جلد السلحفاة أو السرطان ؟

ديوجين : سوف تجرب ذلك بنفسك ، كما ستغير رويدا رويدا كلمة اوريبيد .

---

(٧) – ديوجين الكلبي ، ولد في سينوب بلد بافلاڤونيا تقع على ضفاف جسر « اوكسين » .

الشاري : أي كلمة تعني ؟

ديوجين : اعني تلك الظلمة التي يقول فيهـا : « سيتعذب عقلك ، ولن يعرف لسانك العذاب[8] » وامـا ما سنبدأ به فهو هذا : عليك أن تكون سفيها ، جريئا ، وقحا مع الناس على السواء ، ملوكا كانوا أو سوقة ، لأن ذلك هو الحل الذي يلفت اليك الانتباه ، وهو وحده الذي يعطيك صفة الرجولة وعليك أيضا أن تتصنع لهجة البرابرة ، وأن تصرخ بصوت أجش كنبـاح كلب ، وان تجهم وجهك وتوقفه مع مشيتك ، وبايجاز عليك أن تكون قاسيا جلفـا وحشا ، وأن تطرح عنك الحيـاء والرقة والقنـاعة ، وان تمسح عن جبينك كل احمرار مبعثه الخجل ، وأن تفتش عن امـاكن مكتظة بالناس ، وأن تعيش وحيدا وسط جموعهم ، والا تصادق انسانا ولا تدع صديقا أو غريبـا يدنو منك لأن في ذلك فنـاء ملكك ، واصنـع بشجاعة وامام اعين الناس ما يستحي المـرء أن يصنعه منفردا ، واختر في لذائذ الحب الاوضاع الاشد سخرية وبذلا وابتلع في النهاية أن اعجبك اخطبوطانيا أو حبارا[9] وليوافك الاجل اثرها[10] تلك هي السعادة التي اجلبها لك .

الشاري : تبا لك ، ان علمك خسيس ولا انساني .

ديوجين : انه على الأقل ، صديق سهل التعلم مقبول لدى الجميع ، ولن تحتاج معه الى تثقيف أو درس أو ترهات وهو يقصر الدرب المؤدي الى الشهرة ، وان شئت ان تغدو جاهلا مغمورا ، دباغا أو بائع سمك ، نجارا أو حرفيـا فليس ثمة شيء يحول دونك ودون لفت انتباه الناس اليك شريطة أن تكون وقحا جريئا بالسفه بعد أن تجيد القذف بالشتائم والسباب .

الشاري : اذن فلست محتاجا اليك ، ومع ذلك فلعلك تغدو بحارا أو بستانيا شـريطة الا يعدو ثمنك عنـد هرمس درهمين على أكثر تقدير .

هرمس : خذه بدرهمين ، وسوف تريحنا من هذا الخليع الماجن الذي ارهقنا بصخبه ، واضنانا بألفاظه التي يشتم فيها الناس ، فليس لديه غير الشتائم والسباب يقيء بها .

زيوس : هات لنـا غيره . ادع هذا السيريني[11] لابس الارجوان ، والمتوج بالورود .

الشاري : كيف في مقـدوري أن اشتريك ؟ سيمـا واني محتاج الى مؤدب لولدي ، وهو ولد طيب .

سقراط[12] : من تراه سيغدو أفضل مني للعيش مع طفـل جميل ؟ فليست الاجسام بذاتهـا التي امتلأت نفسي بحبهـا ، بل الروح التي تبدو لنـاظري جميلة .. وثق ان في مقـدور الشبيبة ان ترقد الى جانبي تحت غطاء واحد ، وليس ثمة من احد سيقول لك اني ساداعبهم مداعبات مخجلة .

الشاري : ان ما تقوله لا يصدق ، امحب للشبيبة متيم بها ، ويقصر تطلعه على الروح وحدها ، في حين ان له ملء الحق بالرقاد واياهم تحت غطاء واحد ؟

سقراط : لا شيء اكثر حقيقة ممـا اقول ، اني اقسم لك بالكلب وشجر الدلب .

الشاري : بالآلهة هرقليس ، أيتها الآلهة الفريدة .

سقراط : ماذا عساك تقول ؟ اولا تؤمن بأن الكلب يكون آلها ؟ او لا تعرف ان « انوبيس » اله في مصر ؟ وان « سيريوس » اله في السماء ؟ وان « سربير » اله في الجحيم ؟

الشاري : انت محق ، ولعلي خدعت ، ولكن ما هو اسلوب حياتك ؟

سقراط : اني اقطن بلدا كونته وفق عـادتي ، واشترعت له نظاما جديدا وقوانين هي عندي نقية .

الشاري : اني راغب في معرفة احد قوانينك .

---

(٨) ـ يقول « هيبولت » ان لساني ارتضى القسم غير ان عقلي لم يرتضه البتة .

(٩) ـ حيوان بحري رخو عديم الفقرات .

(١٠) ـ قيل ان ديوجين مات من كثرة ما التهم من الحبّار .

(١١) ـ ارستيب مؤسس المدرسة التي تمجّد الخير في اللذة .

(١٢) ـ ان « سقراط » الذي عرضه « لوسيان » هنا ، ليس سقراط الحقيقي ، بل ذاك الذي وضعه « افلاطون » في محاوراته ، وقدم لنا باسمه المدينة الفاضلة التي تحدث لنا فيها عن مذهبه في الافكار . وقـد حاكى « ارسطو » افلاطون حين انتقد بعض الآراء في محاوراته ، فكان سقراط بالنسبة اليه لسان افلاطون المعبر ، وان لم يأت على ذكر افلاطون البتة ، ولـكن سقراط كان يتحدث في الواقع عن وجهة نظر ارسطو .

سقراط : دونك اهمها ، تلك التي تخص النساء ، فليس علي أي منهم أن يتملكها انسان دون سواه ، وعليها أن تقبل من يهوى الزواج منها •

الشاري : اتعني بقولك انك ابطلت القوانين للراشدين ؟

سقراط : بلى وحق زيوس ، فلقد نبذت بصدق كل ما لا جاوى منه ، مما كانت تتضمنها تلك القوانين •

الشاري : ولكن ماذا تراك قررت بشأن الاطفال الذين هم زهرات الراشدين ؟

سقراط : ان تكون مكافأة لذوي البأس ممن يمتازون بمأثرة لامعة •

الشاري : بحق الآلهة ، أي اريحية هذه ! ولكن ما هو رأيك الاساسي في مذهبك ؟

سقراط : الافكار ، النماذج البشرية ، وكل ما يقع عليه بصرك ، من الارض وخيراتها ، والسماء ، والبحر والكائنات قاطبة ذات الملامح الخافية التي تبقى خارج حدود العالم •

الشاري : أين تراها توجد تلك الاشياء ؟

سقراط : ليس لها مكان ، وان وجدت في مكان ما فلن تمكث فيه البتة •

الشاري : اني لا أرى تلك النماذج التي تتحدث عنها •

سقراط : ليس ذلك منك بعجيب لأنك اعمى البصيرة ، أما أنا فارى صور الكائنات قاطبة ، فحينا اراك لا مرئيا ، وحينا اراني غير ذاتي ، وبكلمة فاني ارى كل شيء مضاعفا •

الشاري : انه لشيء عجيب ، وعلي أن اشتريك ، لأنك حكيم ، ولأن نظرتك صائبة ••• أيها المنادي كم ثمنه ؟

هرمس : درهمان •

الشاري : اني اشتريه بهذا الثمن ، على أن يكون الدفع نسيئة •

هرمس : ما الاسم الذي تنعته به ؟

الشاري : حكيم سيراقوص[13] •

هرمس : ــ هلم ــ خذه ولتسعد به ! تقدم انت أيها الابيقوري من ترى يشتريه ؟ انه احد مريدي ذينك الاثنين الضاحك والباكي اللذين قدمناهما للبيع منذ قليل[14] ان معرفته لا تعدو معرفتهما غير انه اشد منهما زندقة ومن ثم فهو انسان لطيف وخدين لكل ما هو طيب •

الشاري : ما ثمنه ؟

هرمس : درهمان •

الشاري : خذهما ، ولكنني اود أن أعرف ما يؤثر من غذاء •

هرمس : انه يتغذى باللبن ، وبالاطعمة المدهونة بالعسل ، ويفضل عليها التين اليابس •

الشاري : من السهل العثور عليه ، لهذا فسنشتريه بعدئذ من تين نخر •

زيوس : هات غيره •• هات ذاك الذي ذهب شعره ، العابس الوجه ، من اشياع زينون •

هرمس : انت محق انه ليبدو ان اغلب الشارين بانتظاره لانه يمثل الفضيلة ذاتها ، وهي اكمل كمالا من شتى الحيوانات ، فمن تراه يبتغي معرفة كل شيء •

شار : ما الذي ــ تبغيه ــ بقولك ؟

هرمس : انه الحكيم المفرد ، الطيب الاوحد ، وجب عليه ان يكون صالحا ، شجاعا ، ملكا ، خطيبا ، غنيا ، مشرعا ، وهو اهل وحده لسوى ذلك من الاشياء •

الشاري : واخاله كذلك الطاهي الوحيد ، وحق زوس ، لعله الدباغ الوحيد والنجار وغير ذلك •

هرمس : ربما •

الشاري : ادن مني وأجبني ، فاني اروم شراءك •• أي فريق من الناس انت ؟ الا تغتاظ من بيعك وجعلك عبدا ؟

قريسيب : لن اغتاظ ابدا ، لان ذلك لا يتصل بنا (١٥) ، وهكذا فان كل ما لا صلة لنا به هو عندنا سيان •

الشاري : لم أع قولك •

---

(١٣) ــ مريد افلاطون وصديقه .

(١٤) ــ اعار ابيقور ديموقريطر مذهب الذرة ، والفكرة القائلة بتمجيد الخير الذي يقوم على اللذة عند ارستيب السيريني .

(١٥) ــ ثمة اشياء تتعلق بنا ، واشياء لا تتعلق بنا البتة ، ذلك باختصار هو مبدأ « ابيكتيت » .

(١٦) ــ كما ان الاشياء التي تتعلق بنا ذات نوعين كذلك الخير والشر اللذان ، لا يتعلقان بنا مقسمان ايضا الى نوعين : المفضلات والمرفوضات طبقا لما تكون اما كفكرة أو كحال بالنسبة لما نكتسبه من الفضيلة .

قريسيب : ماذا ؟ الا تدري أن من بين هذه الاشياء من يكون بعضهامفضلا ، وبعضها الاخرخلافها(١٦) مهملا ؟

الشاري : لم أع تماما ما قلته .

قريسيب : طبعا لانك لم تعتداصطلاحنا ، وليس لديك الخيال المدرك ، ولكنك حين تغوص في دراستك الى اعماق المنطق ستعرف ليس تلك الاشياء فحسب، بل ستعرف كذلك ما هو الحادث ، وحادث الحادث ، وعلى أي مقياس يختلف بعضها عن بعض .

الشاري : استحلفك بالحكمة ان تحن علي وتقول لي ما هو الحادث ، وحادث الحادث ، لاني صدمت ولم اعد اعرف كيف تنسجم هذه الكلمات .

قريسيب : لن ارد لك طلبا .. اذا صدم اعرج برجله الكسيحة حجرا وآل الامر الى جرح مفاجيء فان الفعل الذي قام به الاعرج هو الحادث ، اما الجرح الذي ادماه فهو حادث الحادث .

الشاري : يالها دقة ! ولكن ما الذي تعرفه كذلك بشكل خاص ؟

قريسيب : اني اعيق بحبال اللغة محدثي ، واكم افواههم ، والزمهم الصمت ، وأورث بينهم الخصام،وتسمى هذه الخاصية الجدل المنطقي المشهور .

الشاري : بحق هرقلي .. كأني بها خاصية عنيفة لا تقهر .

قريسيب : اتريد أن اضرب لك مثلا ؟ ألك ولدا ؟

الشاري : بلا ريب .

قريسيب : هب ان تمساحا خطف ولدك وهو يتنزه قرب نهر ، ثم وعدك التمساح ان يرده اليك ، شريطة ان تصدقه القول بما يجول في خاطره كيما يرد اليك ولدك ، فماذا انت قائل بما اعتزم التمساح فعله ؟

الشاري : يصعب علي الرد على سؤالك ، والحق اني قلق مما يضطرني الى جوابه .. استحلفك بزوس اجبني انت ، وانقذ ولدي قبل ان يأكله التمساح.

قريسيب : لا تخف ، سأعلمك اشياء تذهل لها .

الشاري : ما هي ؟

قريسيب : هي الحاصد والمالك ، وبخاصة الكترا والمقنع .

الشاري : من هو المقنع ، ومن هي الكترا اللذان تتحدث عنهما ؟

قريسيب : تلك الكترا الشديدة البأس ابنة آغا ممنون التي تعرف الشيء ولا تعرفه معا ، ذلك انه حين يكون أوروست بقربها فهو مجهول لديها ، وهي تعرف انه اخوها أوروست ، ولكنها تجهل ان هذا المجهول هو اوروست . أما المقنع فسيبلغك عنه شيء رائع جدا ... قل لي أتعرف أباك ؟

الشاري : نعم .

قريسيب : حسن . افترض اني جئتك بانسان مقنع وطلبت اليك قائلا : « هل تعرف هذا الانسان ؟ »فبماذا تراك تجيبني ؟

الشاري : ليس من شك بأني لم أفقه ما ترمي اليه ؟

قريسيب : لنفرض ان هذا الذي هنا ابوك ، فان لم تعرفه فليس من شك في انك لم تعرف أباك البتة .

الشاري : ابدا . فليس علي الا ان اتبينه لاعرف الحقيقة ، وايا كان الامر فما الغاية المتوخاة من هذا العلم؟ وماذا ستصنع لتبلغ ذروة الحقيقة ؟

قريسيب : سألهو بأولى الخيرات الطبيعية ، اعني سالهو بالثراء ، وبالصحة ، بضروب من خيرات من نوعها ، ولكن علي في هذه الحال ان ابذل قصارى جهدي في سبيله ، وان ارهف شكله في الكتب بحروف دقيقة ، واكدس له الشروح واحشوها بالاخطاء اللغوية ، اما من وجهة النظر الاساسية فليس عسيرا ان يصبح المرء حكيما ان لم ينهل من شراب الخربق ثلاث مرات متتالية(١٧).

الشاري : تلك مبادىء عامة لعلها من طباعك وفي مقدوري القول انها من صنع انسان ينهل علي التومن الخربق وانتهى الى الفضيلة الحقة .

قريسيب : بلى ، ذلك لان الحكيم وحده الذي يقرض بالربى، وكذلك فان من خصاله ممارسة الجدل المنطقي ، لاسيما وان قرض الربى ، وعد الفوائد قريبان مما يصنعه في الجدل ، وعدا ذلك فان من خصال الحكيم تكرارهما ، والا يرتضي كسواه الفوائد البسيطة بل فوائد الفوائد . أو لا تدري بعد ان من بين الفوائد ما تكون أولية ، وان الثانية آتية من

---

(١٧) ــ اشارة الى ما قيل عن كريسيب من انه تداوى بالخربق ثلاث مرات .

الاولى ؟ وهكذا ترى كيف يتأتى ـ في الواقع ـ الجدل المنطقي ، فان ارتضى الحكيم الفائدة الاولى فسيرضى كذلك بالفائدة الثانية مثلما سيرضى بالاولى .

الشاري : لن تتحدث البتة عن الاجور ذاتها التي تتقاضاها من تعليمك الشبيبة ... ولكن أليس من المسلم به ان الانسان الفاضل هو وحده الذي ينال اجر فضيلته التي يتحلى بها ؟

قريسيب : لقد سبق لي ان قلت ذلك ، ولكن ما اتقاضاه ليس لي ، بل لادخل الغبطة الى قلب من يعطيني . كالسخي والمقتصد .. واني اتدرب الان لاغدو مقتصدا ، ويتدرب مريدي ليغدو سخيا .

الشاري : ان ما يجب هو خلاف ما تعنيه .. اذ على المريد ان يغدو مقتصدا ، وعليك وحدك ان تغدو الغني السخي .

قريسيب : كأني بك يا صاحبي تسخر ولكن حذار ان تظن اني ارمي الى هجائك بذلك الجدل المنطقي الذي لا يدحض .

الشاري : ترى أي سوء سيتولاني منه ؟

قريسيب : سيتولاك القلق ، والصمت ، وحيرة الفكر ، وأقسى من ذلك كله عزمي الساعة ان شئت صيرورتك حجرة .

الشاري : ماذا تقول ؟ أأصبح حجرة ؟ انك لمجنون كما اعلم ايها الانسان الحاذق .

قريسيب : دونك ما سأصنعه .. هل الحجرة جسم ؟

الشاري : بلى .

قريسيب : أوليس الحيوان جسما ؟

الشاري : بلى .

قريسيب : وأنت أليس اذن حيوانا ؟

الشاري : انه ليساورني الشك قليلا .

قريسيب : انت اذن حجرة ما دامت جسما .

الشاري : لا تحاول ذلك وأعد الي هيئتي الاولى استحلفك بزيوس ، وانشئني انسانا جديدا .

قريسيب : ليس عسيرا علي . فلتكن انسانا جديدا ، ولكن اجبني هل كل جسم حيوان ؟

الشاري : كلا .

قريسيب : هل الحجرة حيوان ؟

الشاري : كلا .

قريسيب : وأنت ألست اذن جسما ؟

الشاري : بلى

قريسيب : ما دمت جسما ، فهل انت حيوان ؟

الشاري : بلى

قريسيب : لست اذن حجرة ما دمت حيوانا .

الشاري : لقد صنعت خيرا فان رجلي قد جمدتا الساعة من البرد ، وكأنهما ارجل «نيوبه» وأمستا مشدودتين صلبتين .. اما الان فاني سأشتريك .. كم سأدفع لاحصل عليه ؟

هرمس : اثني عشر درهما .

الشاري : خذها .

هرمس : هل انت وحدك الشاري ؟

الشاري : لا لست وحدي وحق زيوس ، بل كل من ترى حولك من الناس .

هرمس : انهم كثر ، وهم أشداء الاكتاف ، قمينون بأن يغدو حصادين .

زيوس : لا تضع وقتك . ناد على غيره من مريدي ارسطو .

هرمس : تعال انت ايها الجميل الفني .. هاكم اشتروا انسانا رائع التهذيب ، يعرف كل شيء حتى اعماقه .

شار : أي ضرب من الناس هو ؟

هرمس : انسان معتدل ، هادىء ، يعرف كيف يحيا ، وهذا شيء مهم .

الشاري : ما الذي تعني به ؟

هرمس : اعني ان ظاهره يغاير باطنه ، ولا تنسى قط ان اشتريته ان تشير الى احدهما .

الشاري : ولكن ماذا يعرف على الاكثر ؟

هرمس : ثمة ثلاثة انواع للخير ، نوع للروح ، ونوع للجسد ، وثمة خيرات ظاهرة .

الشاري : يبدو انه انسان عاقل فما ثمنه ؟

هرمس : عشرون درهما .

الشاري : انه باهظ الثمن .

هرمس : كلا ايها الانسان السعيد ، اذ يبدو ان لديه بعض الدراهم ، كما انك لن تضطر للتعجيل في شرائه وفضلا عن ذلك فسيعلمك توا كم من الزمن يحيا البعوض ، وعلى أي عمق تضيء الشمس البحر

ومن أي طبيعة تكون ارواح الاصداف •

الشاري : يا لهرقلس ، أي علم دقيق هذا !

هرمس : ماذا سيغدو حين يسمعك وانت تردد اشياء تغاير برقتها عما ابديت بصدد الوراثة والعنصر والاجنة في الرحم ، وكيف يغدو الانسان حيوانا مضحكا ، وكيف لا يعرف الحمار ان يبني او يركب البحر •

الشاري : كل تلك التعاليم مقدرة مفيدة لذلك فاني اشتريه بعشرين درهما •

هرمس : حسن •

زيوس : ماذا بقي عندنا لم نبعه ؟

هرمس : بقي لدينا هذا المتشكك •• اقبل يا فيرياس لنبعك حالا « هنا يمضي الشارون قليلا قليلا ولا يمكث غير عدد قليل منهم » من يبتغي شراءه ؟

شار : انا ، ولكن قل لي أولا ماذا تعرف ؟

فيرياس : لا شيء •

الشاري : ماذا قلت ؟

فيرياس : اني مؤمن بأن لا شيء يدوم البتة •

الشاري : تعني اننا لا شيء ابدا ، ولم نخلق قط ؟

فيرياس : هذا غير ممكن ولا اعرفه •

الشاري : وانت ايضا أليس لك وجود ابدا ؟

فيرياس : هذا ما اجهله كذلك •

الشاري : آه ! أي شك هذا ! ولكن ماذا تعني موازينك ؟

فيرياس : ازن بها العقول ، واضعها متساوية ، وحين تبدو لي متشابهة تماما ومن وزن واحد ، عندها لا اعرف بالدقة أيها الصحيح •

الشاري : ان نحن سلمنا برأيك ، كيف يمكنك معرفة الصواب ؟

فيرياس : اعرفه كله ، شريطة الا اتبع عبدا آبقا •

الشاري : أعسير عليك هذا ؟

فيرياس : لاني لا استطيع الامساك به قط •

الشاري : اخال انه سهل ، ويبدو عليك انك طفل ثقيل بطيء الفهم ، ولكن ما الذي تهدف اليه ؟

فيرياس : ان لا اعرف شيئا ، ولا اسمع شيئا ، ولا ارى شيئا •

الشاري : اذن فأنت تدعي ان تغدو في هذه الحال اعمى أصما •

فيرياس : لست على الاغلب صالحا للحكم ، ولا صالحا للحذر ، وباختصار فاني لا اختلف في شيء عن دودة الارض •

الشاري : من اجل هذا اريد شراءك •• كم تطلب ثمن هذا الانسان ؟

هرمس : درهما واحدا •

الشاري : ماذا قلت يا صاحبي ألم اتمم شراءك ؟

فيرياس : انه شيء مشكوك في امره •

الشاري : لا تقل ذلك فاني اشتريتك حقا وان الثمن دفع حقا •

فيرياس : اني اعدل عن حكمي السالف واجرب •

الشاري : حسن ، اتبعني كما يجب ان يصنع خادم عندي

فيرياس : من تراه يعرف انك قلت الحقيقة ؟

الشاري : يعرفه المنادي ، والدراهم ، والموجودون في المزاد!

فيرياس : أثمة في الحقيقة موجود ؟

الشاري : أما انا فماض توا لالقي بك في المطحنة ، لتقتنع بأني سيدك •

فيرياس : اعدل عن حكمك السالف •

الشاري : كلا وحق زيوس ، لقد عبرت عن رأيي •

هرمس : اقلل من عنادك ، واتبع من اشتراك •• أما انتم ايها الحضور فنذكركم بأننا سنعرض غدا للبيع حيوانات الجهلاء وذوي المهن ، والناس من العامة ، وسندعوكم للاشتراك في مزادنا •

سعد صائب

من جمعية الادباء العرب

ذكرى الوحدة

شعر : حنا الطيار

عودي كعود الوشي للادواح — وتفنني بالوشي بعد كفاح
ناديتها واليأس يعصر مهجتي — فرميت يأسي واعتزلت نواحي
لا تبخلي بالبذل اني مولع — بالبذل بعد معارك واضاحي
الوحدة الكبرى متى ميعادها — ومتى نعب بكأسها المسماح
المغرب العربي في غليانه — يرنو اليها مثخنا بجراح
اني أرى بنضاله أفراحه — ولسوف تجمعني بها أفراحي
ولسوف أشهد للعروبة وحدة — كبرى واشرب نخبها من راحي

❋ ❋ ❋

لمن اللواء بعطره ومراحه — سكر اللواء بعطره ومراح
هذي مواكب أمة عربية — طلعت على الدنيا بفجر سماح
تستقبل الايام زهو جناحها — برفيف فاغية وفوح اقاحي

❋ ❋ ❋

النسر عاد الى فسيح جوائه — واستشرف الآفاق عبر فساح
اني عرفت شموخه من زحفه — وعرفت ان شموخه لفلاح
شيعته قلبي بكل زحوفه — واحطته قلبي بكل الساح
ورضيت منه ما أراد لي الهوى — وهواي فيه وصبوتي وطماحي

❋ ❋ ❋

يا ملهمي دربي على الق الضحا — اغرقت دربي كله بصباح
حق الرسالة أن تكون لحلمها — مهرا وليس المهر غير اضاحي
ورسالة الاصلاح لولا ملهم — ضل الطريق رسالة الاصلاح
تختار رائدها وفي أعطافه — لهب الفداء ويقظة الملاح
وتعله حلما يطوف برأسه — وعلى المؤمل عبء كل نجاح
غار الشهادة ملك كل منافح — لقي المغير براحه وجراح
اكبرتها من أن تصير لحفرة — ولففتها بالصبح لا الالواح

❋ ❋ ❋

يوم اللقاء أما شهدت عناقنا — هل كان الا رشفة الملتاح
يوم اللقاء أما شهدت شعارنا — هل كان الا دعوة لصلاح
يوم اللقاء أما شهدت صباحنا — اذ ذر شارقه بألف صباح

❋ ❋ ❋

هشت الى الذكرى دناني والمنى — وترنحت من نخبها اقداحي
قرطتها بالنجم جن بريقه — وعصبت هامتها بعقد ملاح
ولثمت فيها سمرة عربية — نسجت براعمها من الارواح

في ١٩٥٩/٢/٢٢ — حنا الطيار

معروف الرصافي

شاعر العروبة والنضـال

بمناسبة مرور اربعة عشر عاما على وفاته

قبل اربعة عشر عاما ، توفي شـاعر العراق والعروبـة الكبير معروف عبد الغني الرصافي ، بعد ان رفع لواء المقاومة العربية ضد الاستعمار نصف قرن كامل • والرصـافي ، من اولئك الادباء المناضلين الذين وهبوا عبقريتهم وحياتهـم لشعوبهم • فكان ـ في مبادئه القويمة وافكاره الحرة ـ اصدق معبر عن كفاح الشعب العربي • لقد رافق الاحداث الكبرى التي مر بها العرب منذ فجر النهضة العربية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، فطبعته تلك الاحداث بميسمها النضالي القومي التحرري الخاص وأثيرت في مجرى حياته وتفكيره ، فشرع يناضل بجرأة وثبات واصرار في سبيل التحرر والانعتاق من نير الاستعباد العثماني اولا • ثم ما لبث ان انغمس في الكفاح مرة ثانية ضد الاستعمار على اختلاف صوره •

ولد الرصافي في بغداد سنة ١٨٧٦ في عائلة فقيرة ، فأرسله جده في سن مبكرة الى احد الكتاتيب ، ثم تنقل من كتاب الى آخر حتى استقر في مدرسة « الرشدية » العسكرية • ثم تركها والتحق بمعهد ديني ، فدرس على السيد محمود شكري الالوسي وعلى غيره من العلماء ، علوم اللغة والدين • وبدأ يقرض الشعر وهو دون الخامسة عشرة من عمره • ثم انخرط في سلك التعليم وفي اثناء ذلك ، بدأ نجمه يتألق في سماء القصيد ولم يتجاوز الثلاثين •

ذهب الى الاستانة بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، فأصدر جريدة عربية تحت اسم « العرب » • وكان دائم الاتصال بالجمعيات العاملة في سبيل القضية العربية • وانتقل بعد الحرب العالمية الاولى الى فلسطين ، فدرس الادب العربي في دار المعلمين بالقدس • ولما اسست الحكومة الموقتة في بغداد عاد الى العراق ، وساهم في الحركة السياسية ، وتولى عدة مناصب في التعليم ، كـان آخرها : تدريسه الادب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد • ثم اصدر بعد اعتزاله التعليم جريدة « الامل » اليومية ، الا انها احتجبت بعد مدة قصيرة • وهجر العراق مرتين الى خارج القطر •• واتصل بأحرار العرب في سوريا ولبنان • ثم عاد الى بغداد فانتخب نائبا في المجلس النيابي في عـام ١٩٣٠ • ولكنه خيب الطبقة الحاكمة واغضبها اذ قاوم معاهدة نوري السعيد ورفضها •• وفي عام ١٩٣٣ ترك العاصمـة ليعيش في مدينة الفلوجة الصغيرة على الفرات •• حيث مكث فيها حتى انتهكها الانكليز في عام ١٩٤١ فرجع الى بغداد •• يتابع نضاله الفكري • وينشد الاشعار الوطنيـة فاضحـا الاستعمار واعوانه ، متحملا في سبيل ذلك الشقاء والفقـر والحرمان والاضطهاد ، حتى لفظ انفاسه الاخيرة في ١٦ آذار من عام ١٩٤٥ •

* * *

تميزت المرحلة التي عاشها الرصافي بعنف نضالها ضـد الاستبداد والطغيان والتأخر والاستعمار الاجنبي وفي سبيل التحرر القومي •• فكان الرصافي ، في مقدمة الطلائع الحرة التي خدمت المجتمع العربي في نضاله ذاك ، وسندته فـي نهضته التحررية وقوت عزيمته ، بايمان عميق وجهد صادق أمين ، لا توهنه الحوادث ، ولا تعرقل تقدمه العثرات •

كان الرصافي خير معبر عن روح النهضة العربية ، طوال حياته الخصبة • فكان شعره صورة حية صادقـة للنضال العنيف بين تيارات القديم والرجعى •• في جميع مظاهرهـا السياسية والاجتماعية والاقتصادية • وما على المرء الا ان يعود الى شعره الغزير ليتملى بهذه الصور النابضة بالحياة •

عاش الرصافي أول حياته في بغـداد ، فخبر الحيـاة الاجتماعية المتأخرة فيها • خبر الجهـل والفوضى والفتن والرشوة والفقر والامراض ، فتألم وبكى جدها العاثر ، فقال وكأنه كان يبكي بغداد اليوم :

شقـاء تمطى بالعـراق تمطيا
والقى جرانا لا يزحزح واستلقى
فان العـراق اليوم قد نشبت به
نيوب الدواهي فهي تعرقه عـرقا
تمشت بـه حتى اعادت سواده
بياضا ومدت للبوار بـه ربقـا

فلما حط الرحال في الاستانة ، وجدها تنوء تحت كابوس الادواء التي خبرها في بغداد • فأدرك فساد النظـام ••• وندد بالمظالم ، وساند الاحرار ••• اسمع اليه يخاطب قصر يلدز •• ويندد بالمستبدين في كل زمان ومكان ! !

أيهـا القصر ، ايه بعض جواب

لا تكن ساكتا على تسئالي

أين خاقانك الذي كان يدعى

قاسم الرزق باعث الآجال

قد تخوتتنا ثلاثين عاما

جئت فيها لنا بكل محال

ليس عبد الحميد فرد ولكن

كم لعبد الحميد من امثال

ولما تم الانقلاب ، أخذ الرصافي يتغنى بخرائد شعره مادحا الدستور ونعمه ، مباركا الحرية ومكاسبها . داعيا الى العدل والحق والمساواة بين الرعية . ولكنه - ككل مخلص لشعبه ، امين على مبادئه - لم تغره غرر الكلام ولا بهره معسول الوعود ، فشرع يطالب بالاصلاح كثمرة للدستور ، وبانصاف العرب ، لانهم شركاء في الحكم .. فلما طال به الانتظار ، ولم يجد لصرخاته الداوية من صدى ، وظلت بلاده العربية نهبا للجور والجهل والفقر ، عاد يبكي ، مرة ثانية ، ملك العرب الدارس وعزهم المداس ، ويدعو للنضال من اجل تحرر العرب .. باعثا في روح امته النخوة والحمية .. متمنيا ان تغزو اقباس النور والمعرفة ربوع وطنه المضطهد .. يقول :

نظرت الى عرض البلاد وطولها

فما راقني عرض هناك وطول

ولم يبد لي فيها معاهد عزها

ولكن رسوم رثة وطلول

أأمنع عيني أن تجود بدمعها

فان دمي من اجله سيسيل

تريدون للعليا سبيلا وهل لكم

اليها وانتم جاهلون سبيل

الا نهضة علمية عربية

فتنعش ارواح بها وعقول

ولما قلب الاتحاديون للعرب ظهر المجن .. وكشفوا القناع عن حقدهم الدفين ، عرض الرصافي قضية العرب والترك - بشعره - على بساط التاريخ بروح انسانية سامية وثورة واعية ذات مثل عليا مستمدة من اماني العرب وآمالهم . قال يخاطب الدستور المهان شاكيا اليه ظلم الترك :

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به

وسدوا على من حولهم منبع الرزق

كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا

وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق

أترضى بأن تختص بالحكم معشرا

وتصبح للباقين حبرا على ورق

ولم نك ندري لاهتضام حقوقنا

أنحن من الاحرار أم نحن في رق

ولم نستفد الا سقوط وزارة

وتأليف اخرى مثل تلك بلا فرق

ولسنا نريد اليوم حكما عليهم

ولكن نناديهم وندعو الى الحق

فان يفعلوا هذا فيا مرحبا بهم

والا فيا سحق المعاند من سحق

ثم يشير الى الثورة التي لابد منها لتحرير العرب فيقول :

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا

وشيب وشبان على ضُمَّرٍ بلق

بكل ابن حرب كلما شد هزها

بعزم من السيف المهند منسق

ولما قام الاصلاحيون العرب في بيروت ، يطالبون الدولة العثمانية بالاصلاحات . ايدهم الرصافي ودعا جميع العرب للانضمام الى صفوفهم . وقال منبها العرب الى ما يجب ان يفعلوا :

والمجد لا تبنه الا على اسس

من الحديد والا فهو منهدم

فللحسام صليل يرتمي شررا

مفتقا اذن من في اذنه صمم

آها فآها على ما كان من شرف

لليعربيين قد ألوى به القدم

ابلغ بني وطني عني مغلغلة

في طيها مكم في طيها ضرم

ما بالهم لم يفيقوا من عمايتهم

وقد تبلج اصباح المنى لهم

ولما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها ، ووقعت البلاد العربية تحت نير الاستعمار الغربي ، حول الرصافي جام غضبه الى الاستعمار ، وبكى وطنه مرة أخرى . واستنهض همم أبنائه ، منددا بالسياسة الاستعمارية ، وبخداع ساستها ونفاقهم ، وسخر من زيف شعاراتهم فقال :

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي
بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الاسير وانما
أجازوا لهم ان يشمل الامم الرق

ثم يلتفت الى عراقه الحبيب المضام فيقول :

ألم تر في القطر العراقي امة
من الاسر مشدودا بأعناقها ربق
قد اختط فيه السيف للقوم خطة
من العنف لم يمرر بساحتها رفق

وكأنه كان يستشف ما تبينه الايام لعراقه الحبيب من مآسي وعذاب فقال :

ألم ترها قد اصبحت من اسارها
تليح بطرف في لواحظه العتق
تجر قيود الذل راسفة الى
تكاليف حكم في سياسته المحق
سلام على وادي السلام الذي به
تفاقم هول الخطب واتسع الخرق
سنفديه حتى لا حياة عزيزة
ونبذل حتى لا نفيس ولا علق
وان الليالي بالخطوب حوامل
ولابد يوما ان سيأخذها الطلق

والرصافي ، عبقري .. ينطلق ببصيرته النافذة الى روح الاحداث ، ويكتشف بواعثها .. ويستخلص من مآسي بلاده العبر .. شكا الى الريحاني مرة آلام العراق ، ثائرا مزمجرا .. فكان كأنه يصف مآسي العراق في هذه الساعات الرهيبة من تاريخه الحديث . رحم الله الرصافي ، فقد كان صادق الحس عميق النفس ، اذ يقول :

من أين يرجى للعراق تقدم
وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند
د جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره
ظلما وذل كثيره لقليله

ولم ينفك الرصافي يقارع الاستعمار واعوانه ، وخدامه ، من الحكام والخونة والاتباع بأشعاره اللاذعة وآرائه الصائبة .. وثورته النفسية الجامحة فيعبر ـ بذلك ـ عن آلام الشعب العربي وآماله ، دون ان تلين له قناة أو يهن له عزم .. فلم يراوغ ولا هادن ولا داجى ... بل كان همه الاكبر ان يظل امينا لنضاله في سبيل تحرير العراق والبلاد العربية . وكيف يهادن المستعمرين أو الحكام الخانعين وهو الذي يقول فيهم :

ان الوزارة « لا ابا لك » عندنا
ثوب يفصل في معامل لندنا
لا يرتديه سوى امريء اضحى له
طبعا وداد الانكليز وديدنا

كان الرصافي عربيا صادق العروبة . امينا لتقاليد الشعب العربي الخير الرحيم .. الانساني الذي يبيع حياته في سبيل المثل الاعلى ولكنه لا يؤمن بالعنف أو الظلم أو التعصب فقال في ذلك الخرائد التي تدفع الطغاة والمستبدين القدماء والمحدثين يقول :

ولست من الذين يرون فخرا
لمفتخر باهراق الدماء
ولا ممن قد ارتبطوا بماض
فعاشوا ينظرون الى الوراء

ومع ان الرصافي كان يحترق كالشمعة في سبيل وطنه ويذوب ... ويخوض المعركة السياسية حتى نهايتها . فانه لم يغفل عن النضال الاجتماعي .. لم يهمل التأخر والفوضى والجهل .. فندد بهذه الادواء .. وكافحها .. وهاجم التعصب والجمود .. وسفه الانقياد للتقاليد البالية ، ودعا ـ في الوقت ذاته ـ الى كل ما هو جديد مفيد ..

قال يدافع عن المرأة العربية :

كم في بيوت القوم من حرة
تبكي من البؤس بعيني أمه
قد لوحت نار الطوى وجهها
وأعمل الفقر به ميسمه
عاب عليها قومها ضلة
أن تكسب القوت وان تطعمه
من أي وجه تبتغي رزقها
وطرقها بالجهل مستبهمة

كما راقب تطور العلم وتابع تقدم المعرفة ، وادرك اثرهما في تمكين السيادة القومية ، فدعا بني وطنه الى الاغتراف من بحر العلم والمعرفة .. وقال :

أيها الناس ان ذا العصرعصرالعلم
والجد في العلى والجهاد
عصر حكم البخار والكهربائية
والماكنات والمنطاد

* * *

يا مياها بدجلة تجتاز
مرورا بجانبي بغداد
ان نفسي الى الحقيقة عطشى
أفتشفين غلة من صاد
أيها الماء أين تجري ضياعا
وحواليك قاحلات البلاد
فمتى تفطن النفوس فيحيا
بك سقيا موات هذي البلاد

* * *

عاش الرصافي ، الشاعر الثائر ، والشادي الحزين ، سبعين عاما ، كلها نضال وبؤس وحرمان .. عاش في بدء مرحلة التحرر العربي ، والانعتاق القومي .. فشهد الامة العربية ، وهي تستيقظ وتنتفض وتكافح لتخرج من ظلمة الماضي السحيق ، ولتحارب جحافل الجهل ، وتفكك نير العبودية .. هذه الرزايا التي بهظتها قرونا طويلة .. لتلج الى نور الحرية والحق . فأدرك ــ بثاقب فكره ــ اهمية هذه المرحلة التطورية الكبرى ، التي تجتازها امته ، فأخذ بيدها ، وسند نهضتها . فكان شعره مرآة صادقة ، وتعبيرا امينا لروح هذه النهضة .

كان الرصافي حسن التعبير ، جميل الاسلوب ، رصين اللغة ، غزير المادة . فكان في اشعاره نبرات قوية ونزعات واضحة الصخب والعمق ، اثارت حفائظ قومه وحثهم على العمل والنضال وكشفت لهم عن مساوىء التقاليد البالية ودعتهم الى كل صلاح في دينهم ودنياهم .

لقد شب الرصافي وشاب وهو يطلب ــ في فنه ــ الحرية والحق والعدل ، ويتغنى بموسيقاه العلوية العذبة بجمال الفكر الذي لا جمال فوقه ، يقول :

اذا كان في الاوطان للناس غاية
فحرية الافكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة
اذا انتم لم تستقلوا بها فكرا

ومع ما كان لآراء الرصافي وافكاره من اثر في تعيين معالم حياته .. في سعادته وأمنه ، اذ ابعدته عن الرفاه والراحة والدعة . وغلبته في « وغى العيش » وضيقت عليه الخناق في زحمة الحياة . فعاش أواخر ايامه يعالج آلام المرض ويكابد أتعاب الفاقه ، فقد كان بمقدوره أن يحصل على اسمى المراتب لو شاء ان يهادن المستعمرين وأذنابهم . أو يساوم أو يداجي . ولكنه آثر الحرية على الرق ــ على حد قول الزيات فيه ــ واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته .

والرصافي اذا ما قيّم شعره بالنسبة لجمال الاسلوب ومتانة اللغة وحسن التشبيه ، لكان في الطليعة من شعراء العربية في هذا الجيل . فمن جميل تصويره انه كان يتناول الامور المجردة فيكسوها ثوبا حسيا جميلا تكاد تراه بعينك . ثم لا ينفك يرمي بأوصافه دائما الى هدف اجتماعي أوقومي .. أو الى موعظة قيمة ، وما الى ذلك .. اسمعه يصف رهبة الصمت :

فكنت كأني اسمع الصمت ساريا
له بين احشاء الفضاء دبيب

أو اسمعه يسخر بأولئك الثعالب المرائين :

فكم حمل في مجمع القوم تلقه
به ثعلب عند الخلاء وذيب

ومن ابدع وأزهى ما صور به أسى العراق .. قوله :

أما العراق فأمسى الرافدان به
سطرين للدمع في خديه قد سالا

وفي قوله يصف أم اليتيم :

أرى فحمة الظلماء عند انينها
فأعجب منها كيف لم تتضرم

وفي قوله يصف المهجورة :

كأن تلاميح الاسى في جبينها
بقايا ظلام الليل في غرة الفجر

كان الرصافي يصف الحياة الاجتماعية كما يراها ، بصدق وبساطة ، فلا يزيد عليها ولا ينقص منها . وذلك بأرق الكلمات وابسط الالفاظ واعمق المعاني .

فالرصافي ــ بشعره وأدبه الحي الرفيع ــ يعد زعيما من زعماء النهضة العربية ، الذين ربوا الجيل . ومصلحا من أبرز المصلحين في المجتمع العربي الصاعد .. الذين سهروا على مبادىء النهضة العربية ووعوا مثلها .

وهو ان امتاز بالزعامة والاصلاح على غيره ، فلأنه كان

يوحي الثقة الى الجماهير ويسهل لهم الاستفادة من ادبه وشعره .

كان الرصافي لا يتكلف ، فيرسل طبعه على سجيته ، لذلك لم يخضع للصنعة . وكان شعره عذبا سلسبيلا ، من ذلك النوع السهل الممتنع ، في اكثر الاحيان . وان سهولة ألفاظه مع غزارة معانيها ، هما الصفتان الرئيسيتان اللتان حببتا شعره الى الجماهير العربية الطامحة الى التحرر ... لسهولة الارتواء به . فكان يفهمه حتى الذين لم يصيبوا من الثقافة الا اليسير ويحفظونه .

كان شعر الرصافي من السهولة والقوة والصدق ، بحيث يكتشف فيه الجمهور العربي المتعطش للمعرفة ، جميع المعاني والخوالج التي يحس بها . ثم لا يجد الى الافصاح عنها سبيلا . فيكبره ، ثم ينكب على استيعابه والاستزادة من ضرامه التحرري . والائتمام بهداه .

ولئن مات الرصافي قبل (١٤) عاما وانقطعت موسيقاه السامية العذبة عن الترتيل . وصمت ذلك البوق الداوي الذي كان ينفخ العزة والحمية والشمم ، في افئدة الناشئة العربية . فان الحانه الخالدة المعبرة عن حقائق الحياةالعربية وروح التحرر الثورية التي كانت طابعها المميز .. لا يمكن ان تموت .. لانها ترعرعت ونمت في نفوس الجماهيرالعربية من المحيط الى الخليج .. ولم ينحصر قط بين دفتي دجلة والفرات .

واخيرا فللرصافي – في عنق كل عربي – حق . فقد بذل عبقريته ورفاهه وراحته .. في سبيل القضية العربية مدافعا عن حقها مكافحا أعداءها .. حتى مات .

ومن حقه علينا ان نحيي ذكراه .. العبقة الطيبة .. وان نكشف عن شعره القومي التحرري الثوري .. ففيه زاد كبير للحقيقة والتطور والمعرفة والنضال .. وفيه نفحات انسانية سمحة .. وفيه للجيل العربي الناهض هداية ورشد..

القاهرة في ١٩/٤/١٩٥٩ — محمد علي الزرقة

القاع الاخلاقي

بقلم :

الدكتور عادل العوا

للحياة السياسية ، وللحياة الاجتماعية ، في كل زمان ومكان ، حركة دائبة تحمل التغير والتبدل . وهذا التغير والتبدل قد يكون على وجه من السرعة والعنف يتفاوت نتاجه ما بين تطور بطيء متئد موزون ، وبين ثورة خاطفة لاهبة تلتهم الزمان ، وتستبق العصر . ولا بد للفكر الانساني من أن يفهم هذه الحركة المحتومة باستجلاء نقاط ثابتة يؤلف مجموعها خطوط قوة خفية ناشطة ، شأن خطوط القوة التي تكشفها برادة الحديد في حركتها حول قطبي « حجر » المغناطيس .

فاذا شئنا التبصر في الاحداث الجسام التي تمر بها بلادنا العربية في هذه المرحلة الثائرة من تاريخنا المزدحم بالبذل والتطور والنكسات ، وجب علينا أن نرسم عبر هذه الحركية اللاهبة خطوط قوة ثابتة هي مراجع ارتكاز الفكر في فهم الوقائع وتقويمها ، واستشفاف منحى اتجاهها ، ومغزى تلاحقها وتعاقبها .

وليس أوجز من أن نعمد الى حدس رئيسنا الملهم لنستمد من معينه مادة حركيتنا التاريخية الراهنة ، ومعنى نشاطها العنيف الموفور .

فمن قبل مولد الجمهورية العربية المتحدة ، رسم رئيس
فمن قبل مولد الجمهورية العربية المتحدة ، رسم الرئيس في فلسفة الثورة ، ثلاث دوائر تحدد موقعنا في العالم ، وتبين قواعد سياستنا الخارجية ، بتحديد علاقاتها الكثيرة المتداخلة على أجلى وابسط ما يكون أيضاح وتبيان .

يقول : « لن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ، ودورنا بحكم هذا المكان . أيمكن أن نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ، ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ... حقيقة وفعلا ، وليس مجرد كلام ؟ » .

« أيمكن أن نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟ » .

« أيمكن أن نتجاهل ان هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ ؟ » .

فهذه النظرة الواقعية تنطلق اذن من اعتبار الروابط التاريخية والعقائدية التي تربط الاقليم المصري أولا ، وتربط من ثم ، اقليمنا السوري ، بالبلاد العربية والبلاد الاسلامية من جهة ، كما تربط الجمهورية العربية المتحدة بالقارة الافريقية على اعتبار الصلات الجغرافية ووحدة الصراع ضد الاستعمار بوجه خاص .

وقد أوضح الرئيس ، بما لا يدع أي مجال للشك والغموض ، صلة البلاد العربية بعضها ببعض . واعلن غير مرة ان « الكيان العربي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي » . وأظهر بالحرف الواحد اننا « كلنا شعب واحد شعب عربي واحد ، نكافح جميعا متحدين متكاتفين من أجل حقنا في الحرية ، ومن أجل حقنا في الحياة » .

أما صلة هذا الكيان العربي الواحد بالعالم الاسلامي ، فقد قرر مبدأها بقوله : « حين اسرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في اندونسية وخمسين مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسيا وبورما وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الاوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفييتي وملايين غيرهم في ارجاء الارض المتباعدة — حين اسرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة » .

على هذا النحو يقوم صرح سياستنا الخارجية ، من حيث الصلات المباشرة ، التاريخية والجغرافية والعقائدية ، فيستند الى اسس ثلاثة هي : أولا : اساس النضال المشترك يشدنا الى غير العرب وغير المسلمين ، كما يشدنا الى مناضلي

افريقية الملونين وغير الملونين • ثم أساس وحدة الكيان العربي ثانيا ، وهو يتجلى في القومية العربية بالمعنى الواسع الصحيح واخيرا أساس التعاون بين القومية العربية وبين العالم الاسلامي ، وهذا التعاون الوثيق لا يمنع الاعتراف بالولاء القومي الخاص فالمسلم الباكستاني والاندونيسي والصيني والسوفييتي يحافظون على ولائهم الوطني بالطبع ، ويتعاونون في دائرة العقيدة الاسلامية ، ونطاقها الواسع الفسيح •

ولا ريب في ان هذا التخطيط الجلي البسيط يفترض اتساق المفاهيم الرئيسية التي يضمرها ويرتكز اليها •• وتبقى الى جانب ذلك مسألة أساسية تحتاج الى مزيد عناية وعمق ، وهي في رأينا مفتاح سلوكنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي ، ونعني بها صلة القومية العربية بالعقيدة الاسلامية داخل الاقطار العربية ذاتها • كيف ننسق العامل القومي في مع العامل الديني ، وننظم صلتهما وتفاعلهما في البلاد العربية ؟

ثمة ثلاثة حلول جائزة :

أولها : حل الاتفاق والتوحيد ، اتفاق السياسة والدين ، وتوحيد القومية بالعقيدة ، وجعل الاسلام قومية عربية ، وحصر القومية العربية بالاسلام • فتكون الدولة ذات جوهر ديني ، قوامها دستور الدين ، وصيغتها صيغة الاسلام ، وسلوكها سلوك المؤمنين • وهذا الحل لا يزال سائدا في بعض الاقطار العربية التي لما تعتنق مفهوم القومية العربية على اعتباره فلسفة الدولة كلا ولا جزءا •

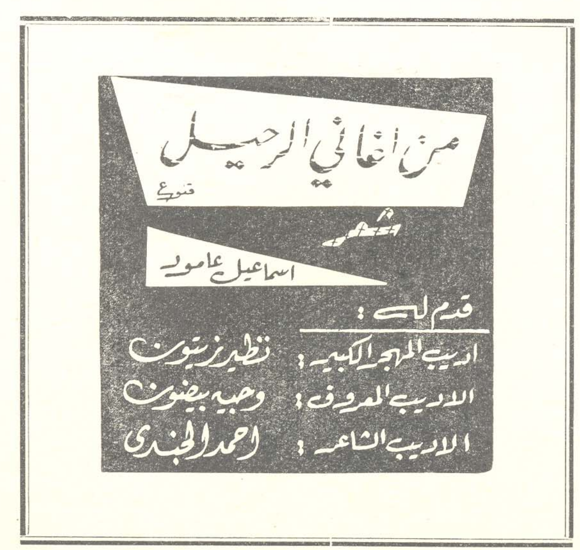
والحل الثاني : هو حل الانفصال والتنابذ • وقوامه فصل السياسة عن الدين ، وتفريق السلوك الديني عن السلوك الاجتماعي ، والقول بعلمانية الدولة ، أو بحيادها من الناحية الدينية • وهذا الحل يجعل فلسفة الدولة فلسفة قومية خالصة • رائدها اعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله • وهذا الحل هو الذي تنادي به بعض الاقطار العربية اليوم ، من غير أن تدعمه في الواقع بما يؤيده ويحققه •

اما الحل الثالث الاخير فهو حل الاستغراق والتطوير • وقوامه النظر الى واقع الامة العربية من زاوية مقتضى التاريخ ، واعتبار حركية المجتمع العربي تطورا يواكب تطور البشرية بوجه عام ، أو يسعى الى ذلك السعي الحثيث • وهذا الحل الاخير يبني فلسفة الدولة على اساس قومي حقوقي يكفل بالقانون حرية السلوك الديني ، ويرى ان (الدولة ـ الامة) هي الصيغة الحديثة لما انتشر في الغرب أولا ، ثم ذاع في بلادنا ، بعد زوال صيغة (الامة ـ الدين)• فالقومية اذن صلة مساواة بالحقوق والواجبات • وبهذه المساواة بالحقوق والواجبات بين سكان الوطن العربي الواحد تتجلى الصيغة الاخلاقية للقومية العربية •

فهذه الصيغة ـ في رأينا ـ هي مبدأ سياستنا الداخلية اولا ، منها نستمد تنظيم نهضتنا الاجتماعية وسلوكنا في مجالات الثقافة والفكر والعمل والاقتصاد • انها النواة الحية للشخصية العربية الجمعية ، وهي حافز الكيان العربي الشامل الذي يتطلع اليوم الى وحدته الكاملة ، من جهة ، ويتطلع عبر هذه الوحدة الى تنظيم صلاته بالعالم الاسلامي من جهة اخرى ، وصلاته بالعالم الانساني عامة ، في ظل مبادىء المساواة بالحقوق والواجبات بين الامم ، أي باعتماد قاع اخلاقي في سياستنا الخارجية ثانيا • وفي كلا الحالين نساير ركب الحضارة ، ونأخذ بمبدأ تقرير المصير ، والتعايش السلمي ، واغراض الامم المتحدة من حيث أهدافها الاخلاقية المثلى •

اما صلة العامل الديني بالعامل القومي داخل البلاد العربية ذاتها ، فانما تتسق آنئذ ـ في اعتقادنا ـ بهذا القدر الاخلاقي المشترك الذي يجعل الفكرة القومية تطويرا سياسيا واجتماعيا لواقع الامة العربية ، فيوفق بين المفهوم القومي وبين جانب اساسي من الدين هو الجانب الخلقي الاجتماعي وبذا يكون قاع وجودنا القومي والديني قاعا اخلاقيا مشتركا • وهذا القاع الاخلاقي منطلق سياستنا الداخلية أولا ، ومنطلق سياستنا الخارجية ثانيا ، وهو معنى وجودنا الحاضر في عالم اليوم •

عادل عوا



ثغر ...

شعر :
سليمان عواد

احب أزهار القرنفل يا سمر نار
هذه الحكايات الوثنية الدافئة
المليئة بعطر الحب
وأشواق القلب
للتلاشي في أنوار الفجر الاشقر
الشبيه بشعرك المتماوج الجعد ...
... احب أزهار القرنفل في ثغرك
هذه الصفحات الوردية المشرقة
التي تتفتح كلماتها الناعمة في قلبي
كتغريد العصافير في الصباح ...
... انها ترثي دم البلابل
بين ايدي الصيادين ...
ودم العناقيد
في حفلة مجنونة ...

★ ★

احب دم البلابل ... والعناقيد
واسطورة ازهار القرنفل في ثغرك
ثغرك الحلو كاحدى اساطير اليونان
آه ... ديانا
كيوبيد
باخوس ...
وعذارى الاغريق الفاتنات
يسكبن الخمرة
بأقداح من الشمس ...

★ ★

...احب أزهار القرنفل يا سمرنار
الازهار التي تخدر الروح
كقبلة وثنية ....
احب الحكايات اليونانية في ثغرك
ثغرك المعطر بشذى الحب
وعبير النبيذ
وخفقان القلوب المتيمة ...

هجرة السنونو

قصة

بقلم

علي بدور

« مهداة الى الذين لم يكن لهم أرض »

كانت آمنة في منتصف القافلة تحث خطاها نحو القرية ، عائدة بعد غيبة امتدت أكثر من شهر في الحقول بغية الحصاد • وكانت تحاول أن تخفي تعبها عن جارتها وجيرانها بالحديث مع ولدها بين الفترة والفترة :

ــ التل •• ثم ننحدر الى القرية يا حسين • سنصل بعد ربع ساعة • وستنام في الظل بعد أن لوحتك الشمس !

ان هـذا الطريق يذكر آمنة بأشياء كثيرة مؤلمة ، اذ في شهر حزيران عندما تبدو الشمس طليقة دون أن تحجبها غيوم الشتاء ، وحين تأخذ الارض تنتعش بفعل الحرارة التي تسري فيها كأنها كهرباء عالية التوتر ، تبدأ جموع عمال الشمال الزراعيين ، أولئك الذين لا أرض لهم ، بالتدفق على جنوب البلاد ، مثل جموع السنونو التي تهاجر من صقع الى صقع ، وقد علت الجلبة فوق رؤوسهم كأنها حفيف الوف الاجنحة التي تصطفق في الهواء مخلفة وراءها دنيا واسعة من الاحلام ، لم تسعها احلامهم في حياة أكثر سعة منها• ما أشبه هؤلاء من عمال زراعيين موسميين بثيابهم البالية ، وحميرهم التي اقتصر طعامها على التبن الخشن ، وكلابهم المسعورة وأبنائهم الصغار الملفوفين في ثياب ممزقة ، والمعلقين بظهور الامهات المستضعفات ، ما أشبه هؤلاء من بعيد ، بألف سنونو ، قد قصت أجنحتها ، فأخذت تحبو على الارض ، تشكو ظلمها لعدالة السماء ؟!

انهم يمضون في الطريق ثلاثة أيام ريثما يصلون المدينة ، وينزلون في الخان الكبير ، ذلك الذي يقف على بابه رجل ضخم ذو وجه مطبوع على الشر ، قد توسط صدره محزم عريض ، زين بمفتاح باب الخان ، الذي يغلق عادة على العمال الزراعيين ، ريثما يتم استئجارهم من قبل المزارعين الكبار • حتى اذا أخذت القافلة تستقر في الغرف المظلمة الرطبة التي لم يدخلها النور منذ أن بنيت لأمثال هؤلاء المنحطين اجتماعيا من بني البشر ، تبدأ الامهات في نزع أثقالهن عنهن ، من اطفال رضع ، وآخرين أخذوا بالحبو ، ويكون رئيس العمال قد مد رأسه من « طاقة » باب الخان ، ليقابل الدلال الذي جلس على دكة عالية ووضع في يده رأس حبل طويل لأركيلة يحترق في أعلاها تنباك من بلاد فارس •

اينما تحول البصر ، كانت هناك نماذج مختلفة من بني البشر • منها ، آمنة ، وهي امرأة في العشرين من عمرها تخرج لأول مرة لتجرب الحصاد في السهول الواسعة ، هي وولدها الصغير ، بعد ان مات زوجها بعلة لم يعرفها أحد • فعدت آمنة حزينة تفكر في مستقبلها الغامض ، وتأسو على ذكرياتها المنيرة ، يوم كانت زوجة لرجل كان يعمل بقوة وحماسه ليوفر عنها مشقة معاونته في تحصيل رغيف العيش انها جميلة ولا تزال • ولكن من يتنسم عبير جمالها هـذا ؟ لا أحد الآن سوى هـذا المستقبل الغامض وهذه الرحلات الشاقه ، ومسحت آمنة شفتيها بلسان مبتل •• فارتسمت على وجهها أطياف سعادة زائلة ، قد غطت عليها ظلمة الغرفة الرطبة التي أشعرتها أن رطوبتها تخترق العظم ، بينما الشمس في فناء الخان تشوي بيض الدجاج • وكذلك هـذا اللفط الذي عماده امرأتان تتنازعان سطلا فارغا وجدتاه في احدى زوايا الخان ، وكل منهما تريد أن تملأه ماء ، لتسقي أولادها وزوجها الذي اتكأ الى الحائط متعبا ، كأنه ثور قد جرحه النير •• انهم جميعا عطاش الى الماء ، ولكنهم سوف يعطشون أكثر عندما يحنون ظهورهم لمدة ساعة بالتتالي وهم يغربون ويشرقون ضاربين في الهشيم مناجلهم المسنونة التي يتطاير منها الشرر ، وتقطر على جوانبها حبات الندى العالقة بسوق السنابل الفارغة الجوف مثل الفاظ ميتة لا معنى لها •• وصور أخرى غير آمنة ، وهاتين اللتين تتنازعان سطلا فارغا•• كلها تكاد تطفو على اطار هذه الرحلة الشاقة للحصاد ، في أرض الغير !!

كان سعال صاحب الخان يتوزع قلوب الجميع من نساء ورجال وهو يعبر الباحة بأقدام ثقيلة وكرش ضخم ، يدل على نهم وشراهة لا حـد لهما ، وبجانبه مشى رجل مسن ولكن عينيه كانتا تلمعان بشدة لاستعراض القطيع العامل وجس عضلات أفراده ، ولو من بعيد • وكان رئيس العمال يمشي وقد انعقدت على فمه ابتسامة لا انحلال لها •• ان صاحب الخان قبل أن يقوم له عن متكئه ، وسيده الجديد يستعرض الآن زملاءه ، وهو بذلك سوف يكون له شأن

كبير على الجميع ، وسيدق صدره بعد قليل ، ليتعهد للسيد ان يكون الجميع امناء متفانين في خدمته ، ولعله بذلك ينام في القرية على فراش من تبن ، بينما جميع رفاقه ينامون على الأرض الحنون !

انهم مسافون بفعل قوة خفية ، لعلها قوة الشر التي تريد بالانسان سوءا على سوء • انهم يفارقون بلادهم الجميلة ، ذات الجبال العالية والثلوج الناصعة تكلل هاماتها ، والجؤول المترقرقة تملأ السهول والوديان هنا وهناك ، حيث تكون الطبيعة صورة صادقة عن الجنة ، بل لعلها الجنة نفسها • انهم يهاجرون كل عام • انهم هكذا خلقوا لا أرض لهم •• مياه الجداول التي تنساب في الحقول ليست لهم ، عبير الورود المتصاعد من الوديان البنفسجية الخضراء لا يدخل صدورهم • انهم لا يملكون الا أجسادهم •• تلك الاجساد التي لا تباع في موطنها •• ان ذلك يقتضي منهم هذه الهجرة الموسمية ، ليستطيعوا العودة بثياب جديدة ، ومؤونة تكفيهم أشهر الشتاء ، عندما يطبق الصقيع فكيه على الطبيعة ويلوذون بأكناف القبور المجللة بالبياض ، ريثما تشرق الشمس ثانية ، وتعتدل نسمات الريح في الليالي المقمرة •

ليس سوى الصمت من سيد الآن • الجميع سكوت • انهم يباعون لمدة شهر ، ولكنهم قانعون بذلك • قد يختلفون على الاجر اليومي ، ولكنهم يتركون ذلك لحين انتهاء العمل ، وريثما يتحدد السعر باتفاق عدة قرى عليه • الا أنهم سيساومون أيضا على أن يكون الاجر اليومي للعمل في حقل الشعير مساويا للعمل في حقل الحنطة • ولكن مالك الحصيد لا يقبل • والدلال يثور على رئيس العمال ويعنفه ويطلب اليه أن يكون عاقلا ، والا كيف يمكن لمالك الحصيد أن يدفع لقاء عمل أحدهم في حقل الشعير وحقل الحنطة نفس الاجرة •• وهو يبيع الشعير في السوق بنصف الثمن ولكنهم هكذا يعيشون • كما عاش اجدادهم الاولون •

ان رئيس العمال يبدو فرحا ، قد لفته ملاءة من السعادة الحلوة • فالدلال استطاع أن يقنع صاحب الحصيد بصلابة هؤلاء العمال وبأسهم وايمانهم ان القناعة كنز لا يفنى • وصاحب الحصيد اطمأن الى خدمتهم واخلاصهم له • فدفع لهم دفعة على الحساب ، ليتصرفوا بها في شؤونهم العاجلة • ان سلمى تريد أن تشتري ثوبا جاهزا • وآمنة تريد أن تشتري لابنها كسوة عاجلة • وخالدة تريد « صرماية » متينة • وكذلك رئيس العمال ينقصه منجل ، وهو لا يشتري بقرش اذا كان عاطلا من منجله • ان الجميع كانوا بحاجة الى اشياء تافهة ، ومجموع هذه التفاهات يقضي بهذا المبلغ الذي منحهم اياه سيدهم الجديد وهو يودعه بنظرة كلها أسف ، على مال يأخذه من كان عليهم أن يشتغلوا عنده بالمجان !!

أشرقت الشمس على القافلة وقد أشرفت على واد تكتنفه الاشجار ويشطره نهر صخاب • وكانت الريح التي تهب رقيقة عبر الوادي ، تحمل للصدور المتعبة كل الروائح المنبعثة من أشجار كساها الربيع ، وأثقلها الصيف بالثمر الناضج الحلو • لقد مشوا يومين وان كان سيدهم الجديد قد سخر لنقلهم بعض العربات التي تسحبها البغال • الا أنهم مع ذلك قد تأخروا ، وكأنهم في سرهم أرادوا ذلك •• ما داموا سيقبلون على عذاب مقيم ، سوف يدق عظامهم ولحومهم معا ، وسوف تلهب ظهورهم اشعة الشمس المحرقة ، منذ الصباح حتى المساء ، وسوف ينامون كالسكارى عندما يسرفون في تناول الخمرة ، امعانا في طلب النسيان من الواقع التعس الذي يشبه حد الموسى المسنونة للتو !!

لقد عاملهم صاحب الخان بقسوة • أخذ منهم اجرة المبيت ليرة واحدة عن كل رأس آدمي !! هكذا كان يقول لهم في منتصف الليل ، ومن سيرفض ذلك ؟ وأين سيذهبون في الظلمة ؟ واولادهم الصغار قد استسلموا للنوم اللذيذ الذي ليس ألذ منه في عالم التعساء أمثالهم ؟ انهم لم يدفعوا له شيئا ، وليس معهم ما يطلبه على كل حال •• ولكن صاحب الحصيد دفع من جيبه • لقد ارضاه الدلال صاحب الخان •• فرد له المقابل في الحال • وهو مع ذلك لم يخسر من جيبه شيئا • انه سوف يقتطع ذلك منهم يوم الحساب الذي هو آت لا ريب فيه • والا لكانوا رفضوا الدفع • ماذا يستطيع أن يفعل بهم ؟ يطردهم ! انه لا يجرأ على ذلك لأنه سوف يأخذ اتعابه من السيد الجديد ، ما دام قد قبل بهذا النفر من الضالين الذين وعدهم بأن يريهم السعادة في هذه الجنة المصغرة التي يشرفون عليها الآن ، والتي أخذوا يذوبون في شعابها ذوبان القطيع اذا ضل عن راعيه في ليل أكثر سوادا من القار !

لم يكن في استقبالهم سوى شلة من خدم السيد يمتطون الجياد • لقد احاطوا بهم جميعا وبدأ أحدهم ، يلقي عليهم التعليمات التي لا بد منها في مستهل موسم الحصاد كل عام :

ـ انظروا الى هذا البستان • انه لا نظير له في هذه

المنطقة كلها . لقد تعب فيه السيد طيلة عشرين سنة . انكم هنـا للحصاد وليس غير . اليد التي تمد الى شجرة مثمرة تقطع ، القدم التي تدخل ارض البستان تبتر . اللسان الذي ينعم بثمرة حلوة يستأصل.تذهبون في الصباح الى الحقول للحصاد ، وعند الغروب تعودون الى المستودع للـراحة والنوم . أولادكم هؤلاء يحجزون في العنبر ، ريثما تعودون. اربطوهم بالحبال اذا كنتم تعتقدون انهم سوف يهربون الى البستان اذا ظلوا طلقاء !

كان يتكلم كأنه صخرة تنشق عن سـم مبيد . وكان الحصان الذي يحمله يهز رأسه من جراء بعض الذباب الذي يهوم حول عينيه . وكان يخيل للحصـادين الذين فتحوا أفواههم دهشة ، ان الحصان من كثرة مـا سمع الخطبة قد حفظها عن ظهر قلب ، فكان يرددها صامتا . وانطلق الخيالة مثل السهام .. وكانت اصـوات الحوافر بمثابة المطـارق تهوي على رؤوس الحصادين . ان آمنة نظرت الى طفلهـا فاختنق الدمع في عينيها .. احقا سوف تتركه مربوطا بحبل ؟ احقا سوف تمنعه من اللعب مع اترابه في البستان ، أولئك الذين ظنوا ان راكب الحصان الاسود كان يرحب بآبائهم وامهاتهم ، ويدعوهم لأن يسوحوا في البستان ، فيطـيروا كالعصافير ، ويسبحوا كالاسماك ، ويستلقوا على المـرج وتحت الظلال مثل الخراف اذا شبعت من حليب امهاتها ؟!

في الليل عندما استلقى ، هؤلاء الجياع المتعبون ، على الارض ، كانت السماء مـرصعة بالنجوم .. وكان القمـر يختال كالرجل لـيـلة زفافه .. وكانت آمنة في شبه حلم . انها تتمنى لو مد اليها يديه .. عله ينقذها من المصير الذي ينتظرها في الغد .. في السهول الواسعة التي تدخلها لاول مرة ، حاصدة في زمرة الحاصدين .

كان الفجر يطل من بعيد على السهول الذهبية ، فيوقظ فيهـا رغبة لا تقاوم لاستقبال انواره الفضية . وفي القرية كانت تتعالى اصوات رخيمة تنبعث من حناجر ديكة تسبح بمجد الله في الاعالي . وخوار البقـر من بعيد كان أشبـه بأصوات ناعورة لا قواديس فيها ، وحفيف المناجل المعلقة في الاجناب ، من جراء تصادم الحلق بعضه ببعض .. كان ذلك كله حلما في ذاكرة هـذا الحبل الممتد من باب العنبر الكبير حتى أول السهم المجاور للقرية ، وقد بدأ رئيس العمال بالحصاد ، فحنى ظهره وأخذ يتبر السنابل من سوقها بمنجله ذي الشرر ، وتبعه زملاؤه واحـدا واحدا بما فيهم آمنة .. وهذه المرأة التي اشترت سطلا جديدا ، وتلك التي غنمت سطلها من فناء الخان المعد لاشباه الحمير من بني آدم!!

ان معـد الجميع ما زالت فارغة ، لم يطعموها شيئا في الليل بحجه عـدم الاستعداد . وكذلك في الصباح . انهم يتبعون العـادة ، حيث يأتون بالفطور في الضحى . اذ حين تكون الشمس قد ارتفعت قدر رمحين أو ثلاثة في السماء يكون حمار ضخم قد خرج من العنبر وعلى ظهره خرج كبير قد امتلأ بخبز الشعير الأسود وخرج آخر في احدى عينيه بصل كثير ، وفي العين الأخرى تنكة ممتلئة برائب اللبن . فاذا ذهب الحصادون في « الامّان[1] » حتى النهاية وعادوا بأخيه ، يكون قد مضى عليهم أكثر من ساعتين .. وعيونهم في الارض وظهورهم معلقة ، ومناجلهم تفصل الرقاب الرفيعة ، وانفاسهم تشتد ، ولكنهم ينسون ذلك كله خلال الغناء الذي يقوم بأدائه رئيسهم ذلك الشاطر الذي يسبق الجميع ، وخلال الصياح الذي يتعالى ، دليل الحماسة والرغبة في التسابق ، وفي هده الجلبة المتعالية التي لا تطـرب ولا تحزن ، يكون حبل المعذبين قد أخذ يتجمع بعضه على بعض في آخر السهم لينطلق مرة اخرى من جديد الى أن يعود الى أول السهم . ان قواهم تذوب وحماستهم تتلاشى وعضلاتهم الفـولاذية تتقلص . انهم لم يعتادوا بعد . سوف يعتادون ، ولكن ذلك يقتضي منهم يومين أو ثلاثة أيام . سوف يفطرون اذن . ان مجرد تصور الطعام وقد انتشر في الارض ، يسيل اللعاب ، حيث الخبز لا يزال حارا ، ورائب اللبن المنعش ، والبصل الحلو ، كل ذلك جدير بأن يطمئن هذه المعد التي تدور على نفسها وتريد أن تطحن أي شيء فلا تجد ما تطحنه !

كانت آمنة تحس انها تذوب . ولكنها كانت تشعر بغبطة لا حد لها . هي تعلم انها تتعذب ولكنها راضية بهذا العذاب. هي لم تثر في يوم ما . كانت مطمئنة الى عـدالة القضاء . لقد سعدت بزواجها ولكن زوجهـا مات . ومن ذا الذي لا يموت ؟ وها هي اليوم تشتغل مثل الأخريات ، فلماذا تشعر بالفضاضة ؟ انها تريد أن تذوب في المجموع لتشعر بالسعادة اذا كان مثل هذا الشعور متيسرا ، وتريد أن تشاركهم الآلام ما دام ذلك هينا وعن أقصر سبيل . انها كانت تستطيع ان تعمل في أي شيء ، ولكنها ارادت الخروج من قوقعتها هناك في القرية لتشهد الناس والحياة واسلوب بني البشر في التعامل علها تضيف الى ذخيرتها المتواضعة من الحياة شيئا ذا قيمة .

(١) الامان في عرف أهل الحصاد : خطان متجاوران .

لقد سمعت عن مواسم الحصاد وشهدت الحصادين يحصدون، ولكنها لم تجرب ذلك مرة واحدة • عندما كانت صغيرة لم يتركوها تحصد • بل أباحوا لها جمع السنابل المتناثرة خلف الحصادين • وكانت تعاون في الحصاد دون ان تمسك بيدها منجلا لموسى الحلاق • ولكنها الآن تحس بالتعب • انها تلتهب بذكرياتها ، وتسبح في العذاب المقيم الذي استحال الى بركة من الدم الاسود • كم ودت لو ماتت بحد منجلها ، ولكن ذلك لا يجمل الآن • هي خرجت من قريتها وحيدة ، شبه طريدة ، وحياتها كلها فداء لصغيرها الذي تركته نائما في عهدة الخبازات • سوف تشتغل ، وستعود الى القرية محملة بالثياب • وستكون وفية لذكرى زوجها ولصغيرها الجميل ، المفتونة به •

كان الحصادون كلما رفعوا ظهورهم لاستنشاق الهواء المنعش الذي لا وجود له في الارض بين الغبار المتناثر من جذور السنابل، مدوا ابصارهم المتعبة في اتجاه البستان الذي كانوا يرونه من بعيد كأنه شجرة واحدة ضخمة ، قد فرشت أغصانها على مساحة كبيرة من الارض • كانوا يشهدون الاشجار تتمايل ويحاولون أن يحلموا بجلسة مريحة ، تحت ظلالها ، وباغتسال في مياه النهر الذي يشطرها ، وبتذوق لثمراتها ولكن صوت المراقب الذي أوكل اليه السيد ، ملاحقة هؤلاء العمال ليستحثهم على العمل بالشتائم والصراخ ، كان يحني ظهورهم آليا ويسوقهم في سباق مع الموت للانتصار عليه !!

فطروا خبز الشعير ورائب اللبن والبصل ، وسيتغدون خبز الشعير ورائب اللبن والبصل • هذه هي العادة • وسوف يتناولون العشاء أول يوم برغلا قد رش عليه بعض الزيت ، كما ترش السيدة الجميلة على وجهها بعض العطور الغالية الثمن • كما سيتناولون في يوم « الخلاص » وهو اليوم الاخير ، برغلا قد رش عليه بعض السمن المتبقي في عنابر السيد من سنين • وسيتعشون فيما بين هذين اليومين الاول والاخير ، قمحا مدقوقا قد طبخ برائب اللبن • انهم يعرفون ذلك جيدا • لقد حفظوه عن ظهر قلب ومعدة معا • حتى آمنة التي لم تجرب الحصاد الجدي قط ، تعلم ان الحصادين يأكلون لشهر أو شهرين ، هذا الطعام الذي لا يتغير ولا يتحسن • انهم يقبلون به ويأملون أن لا يزداد سوءا ، ولو كانوا يشتغلون اثنتي عشرة ساعة كما تشتغل الحمير الصابرة صامتة دؤوبة ، وينامون ساعات قليلة ويستريحون بعد الغداء ساعة وحيدة ، وبعد الفطور نصف ساعة • وما تبقى من الوقت لهم ، عدا ساعات العمل ، فانما هو للنوم الذي لا لذة فيه • اذ عندما تغرب الشمس يكون الجميع قد نفضوا أيديهم ومناجلهم من السنابل ، وعادوا مثل الاموات ، ان خرجوا من قبورهم • انهم يجدون الارض أنعم فراش ولا يسألون عن مكان نومهم • وهم بعد ان يتناولوا العشاء بسرعة ، يميلون على جنوبهم ويذهبون في الاحلام كقطع — لا حراك فيها — من حجر أو طين • ولن يوقظهم سوى صوت المراقب ، وهو يصرخ بهم ، ان اخرجوا الى العمل فقد آن أوانه ، ويهرولون الى السهول الجديدة التي ما زالت تبرا لم تحصد ، عيونهم كأنها ثمار اسقطتها الريح والنعاس شهدها ، ومن أفواههم تنبعث روائح الطعام الذي لم يهضم لسوء طهيه • ولكنهم يستعدون للعمل بالرغم من ذلك • وفي الطريق يحلمون بالعودة ، ويريدونها ، ولكنهم يودون أن يرجعوا غانمين • ان هذه الاشهر القليلة فرصتهم الوحيدة لاكتساب لقمة العيش • وسوف يتحملون الذل والعذاب والجوع والقهر في سبيل هذه اللقمة المجبولة بالصاب • من يسأل عنهم ؟ لا أحد • وأين يعيشون على هذه الارض ؟ ومن يكونون في هذا العالم الكبير ؟ كل ذلك لا يعلمون عنه شيئا • انهم جهلاء جميعا • المتعلم فيهم هو الكبير ، هو الذي أمضى السنين الكثيرة في العذاب المتواصل • انهم لم يتعلموا • لم يسأل عنهم أحد • لم يشهدوا في حياتهم انسانا يقال عنه انه « معلم مدرسة » • وهم مهما نقموا على أوضاعهم ومهما تألموا ، فانهم يعودون طيبين يضحكون من انفسهم ويستسلمون للحياة بوداعة • ولكنهم أفضل من متعلمي المدن على كل حال • اولئك الذين دعوا الحياة ، والذين ان ارادوا أن يفكروا في حياتهم ، تألموا فأطفأوا احساسهم بالالم بخمرة لا انقطاع لانسكابها في حناجرهم ، ولكن هؤلاء الجهلة لم يذوقوا الخمرة مرة •• ولعلهم لن يذوقوها •• ما داموا بعيدين عن المدن وعن شرورها •• وعن العلم ذلك النور الذي لن يشهدوه ما دام ريفهم معذبا ، وما داموا جهلة ، يولدون ويموتون دون أن يخلفوا وراءهم من اثر ، اكثر مما تخلفه الهوام في دنيا عجيبة غريبة !!

كانت عربات السيد ما تزال في كل يوم تذهب الى المدينة محملة بالخيار والكوسا والمشمش وكل الثمار والفواكه التي تنضج في حزيران • لا يباع منها شيء في القرية ولا يأكل منها الا المقربون • اما اولئك الذين يحصدون واولئك الذين

يفلحون ، والجميع الذين يشتغلون اثنتي عشرة ساعة كل يوم ، فليس من الجدير بهم أن يذوقوا خيارة ، أو مشمشة أو تفاحة . انهم خلقوا ليأكلوا بصلا وخبزا أسود .. مضافا اليهما رائب اللبن !

وكانت عيون هؤلاء البشر من الحصادين المتعبين ، تحدق في العربات وهي تصعد الهضاب التي استنفدت أول الطريق ، ورائحة الفواكه والخضار ، تردها الريح في اتجاه السهم الذي يتساقط قطعة فقطعة على مناجلهم . ولعل خيالهم كان يجسم هذا الشعور الكاذب حتى انهم كانوا يعتقدون ان رائحة الفواكه هذه تحيط بهم من الجهات الاربع . كانت ألسنتهم تدور مثل الرحى الفارغة ، وقلوبهم تخفق فتعصر ما تبقى فيها من حب للناس واحترام لانسانيتهم وتذروها بين الهشيم وتملأ القلب بأكثر من حقد على الحياة والطبيعة وعلم الهندسة الرفيع الذي تمت بواسطته هندسة هذا الكون الغريب !

كان الجميع يتناقشون فيما بينهم في أوقات الراحة ، في السبب الذي حدا برجال السيد ، وكذلك بالسيد نفسه بأن لا يرسلوا لهؤلاء الحصادين الذين يتعبون بحق ، ولو في الاسبوع مرة واحدة ، وجبة فطور من الخيار أو المشمش أو وجبة عشاء من الكوسا والبندورة مطبوخة في الماء الحار ؟ أيخسرون شيئا مهما ؟.. أو ليس للبصل والدقيق قيمة ؟.. وكذلك ما يأكلونه عادة وهو يتساوى من حيث ثمنه ، بما تنتجه البساتين والسواقي والظلال ؟ ولكن هذه الافكار ظلت تنمو وتمتد من جانب واحد ، دون أن تحرك في الجانب الآخر شيئا من حساسية أو شعور .

كان رجال السيد يعتقدون بالبداهة ان نتاج البستان انما أنبته الله ونماه ليذهب الى المدينة .. الى المتمدنين الذين يأكلون الفواكه والخضار مغسولة أو معقمة . أما هؤلاء الوحوش القساة الذين لا يفهمون الحياة كما يفهمها سكان المدن ، فان خبز الشعير والبصل ورائب اللبن ، أطعمة فخمة اذا قيست مع ما يستحقون من طعام .. الغاية من تقديمه اليهم أن يظلوا أحياء كي يشتغلوا .. في الارض حتى اذا ماتوا خرج نبت جديد من الكادحين ، وكذلك انبتت الارض شعيرا وبصلا .. ودرت الاغنام والابقار والجواميس حليبا من مشتقات مشتقاته ، رائب اللبن الذي يؤدي تناوله الى الامساك المزمن فلا تحل عقده ، كل المسهلات المعروفة في الصيدليات !!

لعله لم ينغص حياتهم شيء مثل هذا الاسلوب من العاملة الذي فطر عليه هؤلاء السادة ملاك الارض الذين يعيدون بحق ، قصة اولئك الراغبين في توطيد سلطانهم على الأرض في العصور الغابرة . وكان يزيدهم ألما وينسيهم انهم يشتغلون كثيرا ويتعذبون كثيرا ويأكلون طعاما فيه من التراب الشيء الكثير وكذلك ينسون سيئات رجال السيد وكل معاملاتهم الخشنة ، وكل هذه الخضار والفواكه التي لا يذوقون منها شيئا ، وكل وحشة الغربة التي يعيشونها بحواسهم دقيقة فدقيقة ، وذلك عندما يقف امامهم رتل من السيارات الضخمة ويترجل منها السيد وأصحابه ونساء السيد واصدقائه مع صديقاتهن ويأخذ الجميع بالضحك في خلاعة ومجون بالغين وبخاصة النسوة .. انهن يسخرن من آمنة وأمثال آمنة ويصرخن في نشوة انهن خلقن ليمن على اسرة عالية ، ويأكلن بالشوكة والسكين ، وينعمن بالحياة بين الظل والماء وانس القلوب .. ويطالبن بحقوق المرأة السياسية !!

كان الحصادون جميعا يدركون بالبداهة انهم أفضل من هؤلاء الذين وقفوا ينظرون الى مشهد واقعي من الحياة السوداء ، تلك الحياة التي اختلت فيها المقاييس وضاعت القيم . ان الحصادين مع المران القليل والمال الكثير يصبحون مثل هؤلاء نعومة ومياسة وصفاء ، ولكن من من هؤلاء الذين ولدوا في مهاد من نور وما زالوا يعيشون على هذه الذكرى المضيئة ، يستطيع أن يمضي في الامان دون أن يموت في منتهاه ، هالكا ، أو أن يجرب الخبز الاسود والبصل ورائب اللبن لشهرين على التوالي دون تغيير ، ومن دون ان تنحرف صحته ؟! لا يستطيع أحد ذلك ، ان هذه حقيقة تصرخ بها السنابل والبرية الواسعة وحناجر الحصادين ، وهدير محركات السيارات التي كانت تنطلق بعد نصف ساعة لتذوب في البستان الذي يحنو على قصر السيد المضاء بالكهرباء .. ويحقر على القرية المجاورة فتحرم من شمعة واحدة ، فتنام وبقربها قصر السيد يقظان قد كحل جفنيه بنور كأنه اللؤلؤ صفاء . ان القرية تنام بمن فيها من بشر وبما فيها من حيوان وجماد مع أول شعاعات النجوم الساحرة الجذلة ، اذا لفتها العشية بهدوئها وصمتها الحزينين !!

كان هناك شيء ثقيل على الصدور أشبه برحى الطاحون . وكان لا يحس به الا السيد ونفر من المنافقين الذين ودوا أن يموتوا في خدمته . انه أسود شديد الكحلة . انه يغطي نور الشمس ، هذه النار المشتعلة التي لا تخلف رمادا

ما زالت أخباره تتوارد من الجنوب .. فيحار السيد فيما يفعل . ايستطيع أن يرد ارجال الجراد بمفرده ؟ الجراد الذي سوف يبدأ بالبستان .. لينتهي بالقمح الذي لم يحصد نصفه بعد ؟ ولمع بارق من سنا في رأس السيد الفطن . انه يستطيع أن يحارب الجراد وينتصر عليه. لن يترك له البستان ليمسح اوراقه وثماره مسحا تاما . لن يتركه حرا ، فيحرمه من غله موسم الخضار والفواكه والقطن الذي قدره بالالوف لسوف يعمل المستحيل ليضمن لنفسه الانتصار عليه .

كانت هذه الأفكار بعض مارردده المراقب على الحصادين اعلمهم ان الجراد آت . وانه سوف يأكل اليابس وسيستعين على بلعه بالأخضر . انه سيأكل الاخضر واليابس معا . وبهذه العبارة التقليدية ختم المراقب حديثه. ولكن الحصادين كانوا أكثر حزنا من السيد ، لأنهم وان كانوا لا يستطيعون أن يتذوقوا نتاج البستان ، الا انهم كانوا يمتعون العيون بمرآه . والعين ان وقعت على قصر خير من ان تقع على طلل وهذا الهشيم الذي كان ينتظر مناجلهم ، فقد كان منبع رزقهم الوحيد . فاذا أكله الجراد أيضا ، وجب عليهم أن يعودوا من حيث أتوا .. أو اضطروا لأن يهيموا على وجوههم باحثين عن عمل جديد .. ولكن أنم لهم اجنحة الجراد الطيار الذي لا بد وسيبقهم ليحصد بلا مناجل ودون أن يكره صاحب الحصيد على تقديم وجبات الفطور والغداء والعشاء لمئة معدة هي بمعد الحمير أشبه !؟

حقا ان الجراد حيوان مخيف . انه يغطي عين الشمس، دون ما رحمة أو شفقة . انه يدع الناس ، هؤلاء البشر الجبابرة ، أصغر من أن يحولوا دونه . انه الجراد الطيار الذي يترك القرى خرائب ، والسهول الغنية محتطبا ، وأشجار البساتين كرؤوس نساء قد قصت شعورها على الدرجة صفر مماشاة للموضة !!

كان حفيف أجنحته أشبه برعد خفيف ولكنه مستديم .. ها هو في بداية تطوافه يود أن يستريح في البستان . انه يدخله عنوة . وليس السيد بعد ، بقادر على أن يفد اليه برجاله لينبه واياهم ، عليه بخطب عنترية ، يهدده بقطع اليد وبتر اللسان كما جرى في استقبال قافلة المعذبين ، يوم اشرفت على الجنة ، فساقها مباشرة الى النار .. دون أن يتركها تتزود من انس هذه ليأس تلك وعذابها !

كانت آمنة يائسة ، ومثلها كان الجميع الا رئيس العمال، ذلك الشاطر الذي وقف منتصبا كشجرة الحور وصاح بأعلى صوته :

ــ اننا نستطيع أن نعمل شيئا . انفضوا أيديكم من غبار الأرض وانتشروا على شكل نصف حلقة واجروا بسرعة ، واطبقوا على الناحية الشرقية من البستان وحاولوا ان تسوقوا الجراد مع الريح .. وبذلك تستطيعون أن تبقوا قلى قطعة خضراء ــ مهما صغرت ــ في عيونكم .

كانت الانات تتحول بسرعة الى صرخات ، ملتهبة حماسة مثل درداب الطبول في الاسحار . ان الجميع قد انطلقوا مثل سهام مصوبة الى أهدافها . وأخذوا يعملون . ان السيد يشجعهم ويثني عليهم . لقد صيرته الكارثة فارا . ولكنه حتى في مثل هذه الساعة الحرجة كان يخاف ان يملأ هؤلاء الجياع معدهم من فواكه البستان الغالية الثمن . كان يعتقد ان الجراد كارثة وهو لا يستطيع لها ردا . ولكن هؤلاء النفر من الناس كان يستطيع أن يبقي حذاءه على رقابهم حتى آخر نفس طهور يودع صدورهم الطيبة . وفيما كان الحصادون يحصدون الجراد ويدفعونه مع الريح من شجرة الى شجرة كانت سيارة السيد تنطلق من مرآبها الى المدينة لتعود بحصادة تغني عن مئة عامل ما دامت تحصد في يوم ما يحصده هؤلاء في اسبوع . لقد ظل السيد عنيدا فلم يفلح بائع الحصادات باقناعه بمزاياها . انها تقتضي عشرين ألف ليرة .. وتكلف كثيرا وتحرم السيد من التبن .. الذي يباع في الشتاء بأسعار باهظة عدا عن استعماله طعاما لحيواناته الكثيرة . ولكنه الآن مضطر . الحصادة وحدها قادرة على انقاذه من المحنة .. وليذهب التبن الى الشيطان . انه يريد الموسم سليما .. نصف سليم . انه سوف يقبل بالاقل الاقل ما دام لا يستطيع الحصول على الاكثر ، بينما الجراد يفرض عليه شروطه القاسية .

ولكن الجراد ما زال يتزايد . ويرفد القرية وبستانها كأنه البحر الهائج الذي واتاه المد ــ فتأخر جزره عن موعد وبعد ماذا يستطيع أن يفعل مئة آدمي من الحصادين ، ومثلهم من خدم السيد وفلاحيه تجاه عدو يبلغ الملايين . لكل جرادة منه لسان كاد يقطعه العطش .. وها هي تحييه على نسغ الحياة ، فواكه حلوة لذيذة ، ومياه عذبة جارية ، ونسيم عليل بليل .. انه الجراد الذي وجد الربيع وطنا فاستوطنه !

اطبق الليل على القرية الحزينة الكئيبة ، مثلها حزينا كئيبا . الحصادون متعبون حتى الموت . السيد يائس من كل شيء . البستان اشبه بحصن عنيد تفتح ابوابه للغاصبين

الحصيد القائم أخذ يتلاشى ، والخراب يعم كل مكان ، فيملأ القلوب يأسا ، والنفوس شكا بالحياة من هذه المحنة الماحقة الكاسحة .

كانت الحصادة آلة ضخمة ولكنها على ضخامتها كانت طريفة ، بحيث استطاعت ان تدع شفاه الحصادين ـ مزاحمتهم الأولى ـ والفلاحين والسيد ، تنفرج عن ابتسامات اعجاب من هؤلاء البشر بقدرة العقل البشري على التوليد والاختراع والبرهنة على ان الانسان اذا اراد أن يشارك القوى الغيبية التي تنسب اليها الخرائق من ميزة الخلق ، كان قادرا على أن يبدع أشياء صغيرة ـ بالقياس الى اشيائها ـ ولكنها باهرة في نتائجها عظيمة في خدماتها ، جليلة فيما تقدمه للانسان من طاقة فنية تيسر عليه الصعاب ، وتمهد له السبل الشائكة ان الوكيل قد عاد غانما . لقد استطاع أن يأتي بالحصادة في ساعات . وما زالت كلمات بائع الحصادة تطن في اذنيه طنين النحل العامل عندما علم ان الجراد أجبر السيد على كتابة « شيك » بعشرين ألف ليرة ثمنا لها :

ـ في أوروبا يحصدون بالحصادات دون أن يضطرهم الجراد لذلك . انهم يستفيدون من الاختراعات في ظروفهم العادية ليأمنوا العواقب . بودي لو تقتفي أثرهم في بلادنا العزيزة هذه !

كانت مناجل الحصادة الاتوماتيكية تعمل دون أن تطلب وقتا للراحة . ولا تطعم خبزا أو أي شيء آخر . وهي لا تكل عن العمل .. اللهم الا الذي يسوقها ، قد يلتفت يمنة أو يسرة ، ولكنها لا تقف . انها خصم عنيد لليد العاملة بعامة ، ولهؤلاء الذين أتوا من الشمال ونزلوا في الخان ، وأقلتهم عربات السيد الى القرية ، وظلوا عشرين يوما يشتغلون أكثر مما في طاقتهم ويأكلون مأكل لا تكاد تفي بالحاجة ، وينامون ساعات قليلة ، بينما تجيش في صدورهم احلام بالمستقبل .. يقتل بعضها بعضا .. كما يحدث للاسماك في غياهب البحار . ان الآلة لا تحلم ولا تحزن ولا تخاف من الغد ، ولا تتمنى ان تشتري كسوة الشتاء ، ولا ذخيرته من الطعام والوقود . انها تغني السيد عن استئجار اليد العاملة في كل عام . ولكنها تخلف نتائج قاسية . اذ ماذا يصنع هؤلاء وأمثالهم في الاعوام المقبلة . أين سيذهبون ؟ ايتجهون صوب المدن للعمل في البناء وتعبيد الطرق ؟ ايذوبون في الحضارة الحديثة مبتدئين بأسفل درجاتها الاكثر شقاء ؟ انهؤلاء وأمثالهم ، هم الذين يتحملون قسوة الحضارة ـ اذا كان ستمشي في الطريق عبر المستقبل معصوبة العينين غير موجهة ـ وهم الذين سيوفرون السعادة لفئة محدودة على حساب آمالهم وأمانيهم ، دون أن يكون لهم أي حظ مما تصنع ايديهم وتعرق له جباههم .

ان السيد انسان مثل كل بني البشر . قد تضطره الظروف لأن يتراجع ويخسر كثيرا من ماله ، وكرامته وأسلوب معاملته الناس ، ولكنه عندما يرضى بهذا المصير الذي آل اليه موقتا ، فانه يحاول ان يستفيد من اخطائه ليصحح سلوكه وتصرفاته . والجراد الذي اطبق على البستان فمسحه من الوجود مسحا وترك اشجاره عارية تماما وحاول ان يتناول الحصيد كله لولا هذه الحصادة الهائلة التي سبقت الجراد في حصد ما تبقى من الحنطة فأنقذت الموسم رغم بعض الخسران . هذه الامور كلها أفقدت السيد رشده وعاد يرى هؤلاء الحصادين الذين أتى بهم من المدينة ، أصل الداء والبلاء . فلو لم يكونوا موجودين لعاد بالحصادة رأسا . يكفي أن يولد منهم واحد فيخترع حصادة أو تراكتورا ، ليغني عن وجودهم جميعا . انه اصيب في رزقه بسببهم ، بسبب وجودهم احياء فقراء ، بحاجة الى خبزه الاسود وبصله ودراهمه . انه لن يمنحهم الاجرة كاملة . سوف يحاول ارضاءهم .. ولكن شريطة ان لا يخل رضاهم بما عزم عليه .. وبحركات أشبه بحركات الحواة وقف السيد وسط الحصادين الذين تحلقوا محيطين به محاولا أن يشركهم في الاسى من أجله .. ومن أجل البستان الذي كان متعة للناظرين ، فعاد يبكي بعضهم .. حتى آمنة التي كانت ذاهلة عن تأثراته لاهتمامها بولدها بعد أن واتته الحمى ، أخذت تفتح قلبها لعبارات السيد الرقيقة ، كمن يفتح نافذة لنسمات الليل بعد أن التهب بشمس النهار المحرقة . كان السيد يبكي وهو يحدثهم عن البستان . هذه الجنة التي كان السيد قد هيأها لعبيده الصالحين أولئك الذين كان خدمه العشرة يوصونهم بعدم الاكل من ثمرها كأنها شجرة الزقوم !!

كان الجميع يسمعون ، فلاحو السيد وخدمه وأولئك الحصادون الذين كانوا يهزون رؤوسهم .. ولكن قلوبهم لا تستطيع أن تطمئن الى كل ما يقال .. حتى السيد نفسه كان يدرك بالبداهة انه كاذب . انه الآن يحدثهم عن البستان الذي صار قفرا .. ونسي أوامره لتلك الادوات الطيعة من خدمه بقطع الايدي وبتر الالسن ، ولكن الذي أيقظهم من نومهم العميق ، ووضعهم تجاه الواقع المرير ، انما رغبته في

أن يعودوا من حيث أتوا •• علهم يجدون عملا جديدا مدرا !

ان رئيس العمال يحدق فيه ، ويريد أن يحدثه عن الساعة التي تم فيها الاتفاق في الخان • لقد قال لهم سوف تشتغلون شهرا ونصف شهر على أقل تقدير ، وهم قبلوا على هذا الاساس ، كانوا يستطيعون رفض عروضه ويثما يتقدم هو أو غيره بعروض أكثر سخاء • ولكن السيد كان يسكت رئيس العمال كلما هم بأن يتحدث الى السيد حديثا صريحا مؤلما • وكان يبدي للجميع اعذارا ، ويقف طويلا عند الحادث الطارىء الذي جعل الاستمرار في تنفيذ العقد الشفهي مستحيلا ، ولكن هؤلاء الضعفاء لمن يشتكون هذا السيد الذي يطرد حصادي حقوله طردا غير لائق بهم ••وبما تركوا في أرضه من قواهم وصحتهم وآمالهم • انه قد يكون على حق في أن يجلب الحصادة ، وان يدعها تمسح ارضه بسرعة وهو محق أيضا اذا تركهم بدون عمل لأنه لا عمل عنده يشتغلون فيه • ولكنهم لا يفهمون ذلك • انهم يعلمون ان فرحتهم الوحيدة في العام ، هي هذه الايام التي لا تعدو الخمسين يوما • فاذا ذهب نصفها هدرا ، فانهم سوف يشعرون بهذا النقص في الشتاء ، حين يجوعون ، وحين يبردون ، وحين تحصرهم الطبيعة في حيز ضيق من الدنيا لا يعدو أن يكون قبورا أو كالقبور !

كان السيد رغم احتجاجات بعض الحصادين ، بما فيها احتجاجات رئيسهم ، فانه بدا سعيدا كلما أمعن في المقارنة بين عمل هؤلاء وعمل الحصادة ، وكيف كانت الحصادة تنافس الحصادين بضخامتها ودخانها وتحتل قلب السيد من دونهم وهم رغم ما في حياتهم وتصرفاتهم من عيوب ، فقد كان لهم قلوب بريئة وعقول ساذجة ونفوس ظامئة لروح الجمال •

وفي الصباح عندما كانت الشمس تصعد درج المجرة عارية ، كانت قافلة المعذبين تنتشر على طرفي الطريق مثل جناح حمامة مطعونة تحاول أن تدرك الطريق المؤدية الى القرية مارة بالمدينة ، دون عربات ، حتى من زاد الطريق الذي كانوا يتزودون به عقب الخلاص في كل عام • كانت آمنه كلما مشت مسافة بسيطة تحسست بكف وانية صدرها لتطمئن الى وجود الليرات القليلة التي وضعتها في صرة وخبأتها تحت الثياب • سوف تحاول أن تبتاع بها ثوبا •• ولعلها تشتري « صرماية » جديدة • ان صرمايتها التي تلبسها الآن قد اهترأت • ان ارض الحصيد تطحن العظام فكيف لا تطحن جلود الحيوانات المعدة بطريقة بدائية جدا ؟!

كانت همتهم تفتر شيئا فشيئا ، واحلامهم بايجاد عمل جديد تتضاءل ، بحيث كانت تذوب كلما اشتدت من الشمس حرارتها وعلا سمتها • وكانت صدورهم تفيق حتى ليكادوا أن يختنقوا •• وكانت الدنيا على رحبها تبدو صغيرة ، اصغر من موطيء القدم • اذ ما هو الذي سوف يدعهم يبسمون وينظرون الى الوجود نظرات فيها من الرضا والغبطة شيء كثير ؟! ليس من شيء في وجودهم يقدر على ذلك أبدا • انهم هكذا خلقوا ، وكتب عليهم أن يهجروا مسقط رؤوسهم في كل عام ، ضاربين في الارض ، علهم يعثرون بمنابع الرزق ، باحثين عن خبزهم الاسود ، ساعين لايجاد الكساء ، وليس في ايديهم سوى مناجل يعلوها الصدأ • سوف يموتون ، وسوف يستريحون عند ذاك • أما قبل ، فعذاب يعقبه عذاب • أما الراحة ، هذا الشعور الجميل ، فيحسون به عندما يغيبون عن احساسهم في عالم الاحلام ، اذا كان نومهم مريحا وقلما يكون كذلك • الجميع يسخرون منهم ويحاولون استغلالهم واستثمارهم وقلما يخفقون في ذلك • انهم الذين يخدمونهم في القرية ، وصاحب الخان الدلال ومالك الحصيد الذي لم يطعمهم خيارة راضيا ، فأطعم بستانه كله الجراد كارها !!

انهم سوف يصلون المدينة • وقد ينجحون في ايجاد عمل جديد في حقول جديدة ، وقد يخفقون وهذا مؤكد• ولكنهم سوف يعودون في النهاية الى قراهم •• الى دورهم الفارغة التي تنتظرهم • الى العمل في جني القطن في أيام جنيه ، والى قطف الزيتون في مواسم القطاف • الى الحياة الرتيبة التي دأبها أن تعود في صورة واحدة ، وعمر مدير ليس فيه دقيقة من السعادة ، يمضي هكذا مثل بصقة تغرق في بحر عظيم • بحر الحياة التي يعيشها الكادحون الذين ليس لهم ارض ، بكل حواسهم وعواطفهم الى أن يدركهم الموت •

كانت آمنة لا تزال في منتصف القافلة تحث خطاها نحو القرية • •وكان ابنها حسين لا يزال يبكي ويصرخ ، وهي من آن لآن تعيد عليه قولها الذي لا يتغير :

ــ التل •• ثم ننحدر الى القرية يا حسين • سنصل بعد ربع ساعة ، وستنام في الظل بعد أن لوحتك الشمس !!

حلب : علي بدور

من الاصدقاء

أغنيات شاحبة

لاسماعيل عامود

العيون الجميلة
في وجه حبيبتي الصغيرة
التي لا أسميها هنـا ...
أجمل من الربيع والفرح ..
وأحلى من السعادة والحياة !.
وأروع من الروعة .!!
فيابحار اللازورد والعميقة ،
رفقا بزورقي المسحور ..
رفقا يا بحـار ..
فأنا ملاح فقير .!
جواب آفاق عديدة ..
لا أملك من حطام هذه الدنيا الفانية ،
سوى قلبـي ...
قلبي الحائر الذي أحب العيون
وانتهي ...
على شواطيء الجفن المنهوك ..

* * *

سأظل أحبك
أيتها السمراء الحارة .!
كاقليم استوائي غامض ..
كأشواقي الملتهبة الجامحة .!
وسأظل أرتعش لمرآك ..
وأنت عارية كأفكاري .!
لأن الحب العظيم ،
في الشوق العظيم .!
وكل ما قيل عن الحب غير هذا ..
فهو هـراء .. وكذب ..
ولكن ..؟
حـذار من النـار ..
أيهـا الرماد الخـابي
حـذار ..!!

* * *

أيتها الشفاه التي لا تحترق ..
يا جذوة في الثنايا الجميلة ..
اقتربي ..
فان روحي معلقة بك ..
يا جنة بلا أسـوار ..
فأنا أود الاحتراق !.
في نار الشفاه الاربع ...
وبعدها .. لا أكون ...

* * *

الباب الخشبي .. كم أحبه ..
لقد أنهكته اللفتات الكثيرة ...
ومسحته ألف يد بيضاء ..
وكللته ألف باقة من أزهار الربيع .!
وقبله ألف منقار أحمر طروب ..
فيا بابها الخشبي الملصوق في ضلوعي ..
ما أنا سوى مستجد غـريب
يقف قبالتك حزينـا ..
فهل لك من يد كريمة ؟
تمدهـا الي
يا بابها الخشبي الملون .؟!

* * *

في قلبي طعنة جفن !.
وذبحة حب .!
وجراح حيـاة لا تشفى .!
فمتى يموت قلبي بلا ذكريات ..
وأرتاح ...
.. وأريح .!؟
متى تنطفيء هـذه الجذوة
في مشاعري .. متى ..؟!
متى يقول النـاس :
مات الشاعر الحزين ..
مـات .!!

دمشق : اسماعيل عامود

العيون الظمأى

بقلم
فطمة الشلق

العيون الظمآى للنور هم تلك الفئة من المواطنين الذين يعيشون في الظلام ، هم أولئك المحرومين من النور الذين قسا عليهم القدر فأسدل على أعينهم حجبا سوداء ابعدتهم عن دنيا الحياة ، وذهبت بأغلى ما يملكون ، فحرموا من نعمة البصر ، وأحاط بهم الظلام وهيمن على حياتهم وعقولهم وقيدهم المجتمع بالاغلال والاصفاد ، فأوصد في وجوههم ابواب العلم وأقام دونهم الحواجز ، الامر الذي كاد أن يجعلهم مرتعا خصبا للجهل والبطالة والتشرد والحرمان والتردي في وادي الشقاء السحيق لولا بقية من ايمان المجتمع بحق أفراده وتضافر الجهود لتوفير حياة حسنة للمحرومين من نعمة البصر وجعلهم يتمتعون بحياة عزيزة كريمة .

ان مشكلة المكفوفين هي من أهم مشاكل المجتمع التي يجب الاهتمام بها وان طبيعة معالجتنا لهذا الموضوع تضطرنا الى أن نسلط أضواءنا على زاوية العلاقات الاجتماعية ، وتحديد علاقة المكفوف بالمجتمع باعتباره عضوا فيه ، ويجب أن نفهم الظروف الاجتماعية المحيطة بالمكفوف وكيف ينظر المبصرون الى المكفوف وكيف ينظر المكفوف الى نفسه لا كفرد وانما كعضو في جماعة .

فالمجتمع في جملته ما هو الا أفراد يلبس كل منهم شخصية ويتفاعل مع الآخرين بشخصياتهم أيضا يؤثر فيهم ويتأثر بهم .

فكثيرا من علماء النفس والاجتماع يعتقدون بعلم نفس عام وعلم اجتماع خاص بالمكفوفين وفي نظرهم أن حرمان الانسان من الابصار ومن النظر ، وان حجب النور عنه وحجب الالوان وكذلك حجب الجمال الذي يسمع عنه ولا يراه ، ثم عدم تمكنه من ممارسة بعض أنواع النشاط والتفاعل الاجتماعي كل هذا يؤدي الى فرق سيكولوجية بين المكفوفين والمبصرين .

ويضيف بعض علماء النفس أيضا الى ما سبق أن دوام ضرورة اعتماد المكفوفين على اخوانهم المبصرين في الزعامة والقيادة وفي التصميم ورسم الخطط وفي التوجيه والارشاد ، وفي الحماية من الاذى والاعتداء ، كل هذا وغيره يوجد لدى المكفوفين نوعا خاصا من التفكير ومن الاتجاهات والسلوك .

وهناك جانب آخر للمسألة في نظر علماء النفس ، وهو رد فعل العطف الذي يقابل به المكفوف من جانب أفراد المجتمع الآخرين فالشفقة المشوبة بالالم ، والعاطفة المزوجة بالرثاء وغيرها تجعل تكييف الكفيف مهمة صعبة له وللعاملين معه في هذا الاتجاه ، ان كف البصر لهو نوع من العجز وهو عجز كبير ظاهر يستحوذ على الشفقة ، ولكن اذا وقفنا قليلا نحو أقوال العلماء هذه يجب أن يسائل الباحث منا نفسه هل أنا حقيقة أساعد أم أعرقل ؟ فنرى أنه اذا ماهيء للكفيف أن يتحرك بحرية واستقلال ، وأن يقدم لنفسه بنفسه الاحتياجات ، وأن يقوم من وقت لآخر ببعض الخدمات للغير وأن يعمل بعض الاعمال التي تتطلب ابتكارا وأن يمكن من الحصول على الخبرات الاجتماعية فان تكيفه يصبح أمرا ميسورا وهذا يعود الى حسن التربية ـ التي ما هي الا تنمية ملكات الفرد العقلية والعاطفية والحسية بدرجة متناسبة تكفل للفرد أن يحيا في المجتمع الانساني حياة سعيدة نافعة .

فمن الخطأ أن نظن أن هناك أي خلاف عقلي أو عاطفي أو نفساني بين الاطفال المبصرين وغير المبصرين ، واذا وجد أي خلاف فهو نتيجة التربية والتوجيه وليس نتيجة فقد البصر ـ فالطفل غير المبصر طفل عادي في كل شيء .

والفرق بين تربية الطفلين فرق شكلي لا موضوعي بمعنى أن أساليب التربية يجب أن تكيف بما يناسب كل منهما تماما ويجب أن تكون شخصية الطفل هي المحور الذي تدور عليه تربيته .

فان الهدف في أي نوع من الخدمات التي تقدم للكفيف هو تمكينه من الاستقلال والاعتماد على نفسه ، ولذلك فمثل هذه الخدمات يجب أن تركز على ما نسميه بالفردية بمعنى أن كل حالة يراد خدمتها يجب أن تكون مسبوقة ببحث ، انه في أية خطة توضع أو ترسم لتأهيل الكفيف يجب أن يلاحظ ويراعى جيدا اتجاه الكفيف المراد خدمته ـ وقدرته وامكانياته بجانب البيئة التي يعيش فيها والتي يعتبر عضوا من أعضائها .

فالتربيه والتعليم هي من الامور التي تصادف كثيرا من العقبات وتحمل بين طياتها كثيرا من الصعوبات ، فكل هذه المسؤوليات تختلف نوعا ما في حالة الطفل المكفوف عن الطفل المبصر •

فالطفل المكفوف هو كما قلنا طفل عادي كبقية الاطفال المبصرين وان نموه العاطفي ، ونمو رغباته ، وفكره كل هذا بوجه عام لا تختلف في مراحلها عنها لدى زميله المبصر • ولكن هناك أنواع من السلوك والنشاط يصعب القيام به للشخص الذي لا بصر له (كربط الحذاء في مبدأ الامر — واستعمال الشوكة والسكينة بالطريقة المثلى) فنرى أن الطفل المكفوف لا يتمكن من الالمام بكل هذه الامور في السن التي يتمكن فيها أخوه ، ولكن يجب أن يتعلمها حينما يصل الى السن والنضج الذي يمكنه من ذلك • وهذا يعود الى طريقة أو عملية التكييف الفردي التي هي مشكلة الكفيف الاولى ، وهذه المشكلة لها صلة وثيقة بأهم ظاهرة نفسية تميز الكفيف ألا وهي ظاهرة الخوف •

وهو أمر منطقي في أول الامر ولكن يجب أن يتغلب عليه مع الزمن ومع اتاحة الفرصة للكفيف أن يتحرك ليبدد أوهامه من الخوف الذي يساوره من الحركات والافعال ومن نظرة المجتمع اليه — فيجب معاونة الكفيف في تفهم حقيقة مشكلاته وامكانياته ، ومساعدته لشق طريقه في المجتمع وازالة الصعوبات والعثرات التي تواجهه ليحقق له التكيف مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه •

فمنذ حوالي مائة عام أو أكثر قام الدكتور صمويل جريدلي هاو Gridly Haow في الولايات المتحدة بأول محاولة معروفة لتعليم طفل مكفوف أصم وكان ذلك عقب قيامه ببعض زيارات لعدد من المؤسسات التعليمية في أوروبا وقتذاك حيث كانت محاولات مماثلة تجري وكان من نتيجتها نجاح تعليم (لودا بريدجمان — Loda Bridjman) وكذلك منذ خمسين عاما أو أكثر نجحت محاولات مماثلة على ضوء تجارب الدكتور (هاو) تلك هي محاولات تعليم الدكتورة (هيلين كيلر) وقد أدى تعليمها الى نتائج واسعة المدى في كافة بقاع العالم •

ولنرى الآن كيف كانت مكانة المكفوف في المجتمعات البدائية وعند الاسلام وفي العصر الحاضر •

فكان ينظر للمكفوف في المجتمعات البدائية على أنه متسول متشرد يعيش عيشة ذل وحرمان ، ويتخبط في دياجير الجهل والظلام فكان يعيش على هامش الحياة وهذا كان مما يؤثر على مركزه الاجتماعي •

ولكن التاريخ أثبت لنا في هذه الايام عظمة وشهرة بعض المكفوفين علما بأن التاريخ يتطرق دائما الى ذكر المشاهير أكثر من ذكر العاديين فنراه يسجل لنا أن العمى كان معروفا تماما لدى الامم القديمة ، فقد كان ثلاثة من ملوك الفراعنة مكفوفين وهم — سيزوستريس — فرعون — وأنوبيس وسطر لنا المؤلفون في الامبراطورية الرومانية القديمة نبذا عن رجال الحكومة والفلاسفة والعلماء المكفوفين — فهذا ديودوريوس أستاذ شيشرون وديدمون الذي فقد بصره في السنين الاولى من عمره ، وذلك الشاعر المشهور هوميروس صاحب الالياذة الخالدة •

وقد كانت نظرة المجتمعات البدائية للمكفوفين نظرة خاصة تختلف عنها عن المبصرين — فقد أعفت دور العدالة والقوانين عند بعض الامم القديمة المكفوفين من بعض الواجبات ، وفي أوائل عهد المسيحية كانت الصدقات واجبة للمكفوفين وقد أسست لهم بعض الملاجيء ، هذا الى جانب عناية الاديرة بالمكفوفين وما كانت تقدمه لهم من مساعدات • وكانت الخدمة العامة خلال العصور الوسطى منظمة في شبه جزيرة اسكاندينافيا — أما في ألمانيا فكانت البلدية هي المسؤولة عن تقديم الخدمات العامة للفقراء ومن ضمنهم المكفوفين • وفي نهاية هذا القرن شرع في محاولة تنظيم برامج لتعليم المكفوفين ، فقد أنشأ (فالانتان هاو) أول مدرسة لتعليم المكفوفين في باريس عام ١٧٨٥ وهكذا اتخذت الرعاية الاجتماعية للمكفوفين شكلا جديدا لها •

أما في الاسلام فكان ينظر للمكفوف نظرة تقدير ورحمة فقد حفظ الاسلام للمكفوف كراحته ، وصان له حريته ، وراعى شخصيته واذا كان قد منعه من بعض الاعمال فانما فعل ذلك تيسيرا له لا تحقيرا •

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يرد بالاعمى في أغلب المواطن المكفوف الذي ذهب بصره وانما يريد العمى المعندي القلبي أو العقلي أو الروحي وقال تعالى في كتابه العزيز — في سورة الانعام « فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها » وفي سورة محمد « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وفي سورة آل عمران « ان في ذلك لعبرة لأولي الابصار » وفي سورة آل عمران « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » وكذلك « اذا مسهم طائف من الشيطان

تذكروا فاذا هم مبصرون » •

ونتقل الآن الى القرن العشرين الذي شهد تطورا في أساليب البر في ميدن الرعاية والخدمة الاجتماعية بوجه عام مما ادى الى النظر الى بعض الفئات كالمكفوفين مثلا نظرة مغايرة لما كان مألوفا ومعروفا •

لم يعد الكفيف سلعة لارضاء الرغبة في عمل الخير والتقرب الى الخالق ، كما لم يعد الكفيف بضاعة لجمع المال للاحسان والتكفير عن السيئات ، وكذلك لم تعدمهنة الكفيف الرئيسية التسول وما يماثلها من المهن التي تعتمد على عنصرين رئيسيين من عناصر الانسانية وهما الشفق على العاجز من جانب الناس ، وايمان العاجز نفسه بأن لا مجال له مع المبصرين الا أن يكون ذيلا لهم وعالة عليهم لأنهم أولياء نعمة وبدون احساناتهم لا يستطيع أن يحصل على معاشه ورزقه •

فالنهضة العالمية التي بدأت منذ أوائل القرن الماضي والتي كانت وما تزال تهدف الى تنظيم رعاية المكفوفين تنظيما يكفل لهم التعليم الصحيح والتدريب الكامل ، والتأهيل العملي بأحسن الطرق والوسائل بشكل يؤمن لهم الحياة الكريمة ليكونوا متساوين في ذلك مع سواهم من المواطنين العاديين ــ فكل هذا قد أدى الى نتائج ملموسة الاثر في هذا الاتجاه •

أيها السيدات والسادة لقد ثبت أن المكفوفين يتمتعون في كثير من الاحيان بذكاء غير عادي يفوقون به المبصرين ، وقد استطاع كثير منهم بفضل ذكائهم وتعليمهم وتثقيفهم وتوجيههم أن يعملوا في شتى ميادين العمل كالمبصرين تماما جنبا الى جنب فمنهم الاديب والشاعر والمؤلف ومنهم الطبيب والمهندس والميكانيكي والرياضي وغيره من العلماء المشهورين •

فهذا هو عميد الادب الدكتور طه حسين ، المفكر الحر ــ صاحب المدرسة الحديثة التي وجهت الدراسات الادبية وجهة جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمت والانحطاط الى عصر القوة والحرية والانطلاق ــ فهو فتى من أرياف مصر لم يتميز عن لداته وأقرانه الا بقوة الذهن وقوة الملاحظة ــ وما كادت الاقدار تصل بينه وبين دنيا المعرفة حتى سار في طريقه المتعب الشاق يقفز قفزا ويترك زملاءه وراءه ويصبح من طلاب السوربون في جامعة باريس حتى كان أخيرا مدرسا في الجامعة المصرية ومن ثم انتقل من التدريس الى عمادة كلية الآداب وها هو حكيم المعرة الشاعر الموهوب الفيلسوف المكفوف الزاهد أبو العلاء المعري ــ فكان عبقريا فذا ، ومفكرا موهوبا ، ونابغة مثيرا للدهشة والاعجاب ، فقال الشعر وهو في الحادية من عمره ، وألف ما يقرب من ثمانين كتابا •

وهذا أيضا الشاعر المكفوف بشار بن برد يدرك أن كف البصر هو الذي وفر هذا الذكاء عنده •

وكذلك ان الجراح الانكليزي (هيوجيمس) استطاع أن يستمر في الجراحه احد عشر عاما وهو مكفوف البصر •

وان الاميريكي (روبرتجاندريس) ولدمكفوفا ولكنه تعلم اصلاح بعض الاجهزة في محطات الاذاعة واستطاع بذكائه أن يخترع جهاز انذار للحرائق وآلة للتصوير عن بعد•

وهذا (رينشارد دافتون) اصيب بفقد بصره في شبابه ولكنه استأنف عمله كمهندس باحدى شركات الطيران البريطانية ولا يزال حتى اليوم كبير خبرائها •

فالمكفوفون قوم يحسون بجمال الفن ويستجيبون لنداء العاطفه ولا يجحدون داخل القيود المرهقة والاغلال الثقيلة ولا ينقصهم الا حسن التربية والتوجيه والتكييف وهذا مما حدى بكثير من العلماء والمفكرين في الغرب يهتمون بشؤون المكفوفين الى درجة جعلتهم يعقدون المؤتمرات الدولية وينشئون المجالس العالمية لاستنباط انجع الوسائل الكفيلة بتحسين أحوال المكفوفين ، وكان من نتائج هذا أن اتسع نطاق الرعاية وفتحت أبواب جديدة كثيرة لتشغيل المكفوفين والاستفادة من امكانياتهم وملكاتهم وهذا مما أدى بالفعل الى تحسن أوضاعهم وظهور عدد كبير من النوابغ الناجحين منهم ــ وبعد الحرب العالمية الثانية فتحت أبواب جديدة لتشغيل المكفوفين في بعض المصانع وقد دلت النتائج على النجاح التام في هذا الحيوان ، وقد اجريت أيضا تجارب لتدريب المكفوفين على بعض الاعمال الزراعية المحدودة فنجحت التجربة نجاحا مما شجع المهتمين بشؤونهم على العمل لتوسيع هذا الميدان الجديد •

هذا بعض ما تقوم به بلاد الغرب في حقل من أهم حقول الخدمات الاجتماعية •

أما في الاقليم السوري فلا توجد مدرسة نظامية للمكفوفين سوى مدرسة تعليم المكفوفين التابعة للمعهد الاهلي بدمشق التي انشئت عام ١٩٥٥ وهي جمعية ثقافية اجتماعية تهدف الى خدمة المجتمع والعمل على رفع شأنه اجتماعيا وثقافيا وفنيا وذلك عن طريق نشر العلم والفنون

نشيد ... في المقهى الحزين

قصة

بقلم
جان الكسان

« مات في الصباح وهو يغني » ..

لم تكن صورتها هذه المرة مهزوزة القسمات رغم زجاج نافذة السيارة وما تراكم عليه من غبار الطريق ..

أما زوجته فقد اسندت رأسها الى كتفه وراحت في اغفاءة والسائق الكهل كان يحدق الى الطريق الترابية التي تمتد أمامه بين حقول القمح ، واما هو فكانت صورتها التي بدت أمامه مرتكزة على خط الافق ، قد ملأت عينيه ودفعت الى ساح شعوره بالذكريات فراح يحاول أن يستجلي أوجهها بتأمل واستقراء ..

نفس العينين السوداوين اللتين كان يرى فيهما الطيبة حتى في اشد ساعات غضبها ، نفس الشعر الذي خالطه المشيب ، والقامة الطويلة النحيلة ، والثوب البني القديم ، والصوت الهادىء الذي يتهدج بحنان .

« مات في الصباح وهو يغني » ..

ابوه الذي مات ، منذ عشرين سنة ، كان هو آنذاك في الخامسة من عمره ، لا يزال يتذكر كل شيء كأنه حدث منذ عام فقط ، ان ذاكرته نبيهة ، هكذا قال عمه توفيق عندما قص عليه نبأ زيارته للقرية وكيف ان حميحم وعنتر سرقا ساعته واخفياها في التين ، لم يكن يومئذ قد تعدى العام الثالث من عمره الا بأشهر قليلة .

« مات في الصباح وهو يغني » ..

كانت امه تقول هذا لكل الذين تحلقوا يومئذ حول الجثة ، وعيناها الطيبتان تسفحان الدموع بغزارة ..

كان ابوه يردد عندما مات اغنية تركية حزينة كثيرا ، سمعها منه ، ويعرفها كل الجنود الذين كانوا يساقون في العهد العثماني لحرب المسقوف على شواطيء الدردنيل .

وصاحت امه صيحة دوت في أرجاء القرية فتراكض

الجميلة ومختلف الخدمات الاجتماعية بين المبصرين والمكفوفين وضعاف البصر والايتام ومساعدتهم على تكوين أنفسهم كأعضاء عاملين في المجتمع ومكافحة الامية بينهم .

وتتألف هذه المدرسة من ثلاثة أقسام :

١ ـ القسم الدراسي لجميع المراحل وفقا لمنهاج وزارة التربية والتعليم ـ وقد تقدم في هذا العام لامتحان الشهادة الابتدائية ستة من المكفوفين وكان النجاح حليف الجميع وكان التلميذ   هو الاول على المكفوفين والمبصرين في سوريا .

٢ ـ قسم التعليم المهني ويقوم بتعليم المكفوفين بعض الصناعات اليدوية ليتمكنوا من كسب عيشهم للاعتماد على أنفسهم في مستقبل حياتهم .

٣ ـ قسم الخدمات الاجتماعية ويقوم هذا القسم باجراء البحوث عن أوضاع المكفوفين وطوق حياتهم في بيئاتهم الخاصة وذلك ليتمكن مجلس الخدمات التابع للمعهد من العمل على تحسين أحوالهم ورفع مستواهم من جميع النواحي الاخلاقية والاجتماعية والمعاشية والصحية كما يقوم هذا القسم أيضا بتدريب المدرسين والمدرسات على طرق تعليم ورعاية المكفوفين .

فان الرعاية الاجتماعية للمكفوفين وكل المشاكل التي يعانيها هؤلاء الناس من الامور التي تتطلب من العاملين في الهيئات الاهلية دراسة وافية مع الاستعانة بالتجارب العملية وخبرة ذوي الاختصاص ولا يمكن لأية جمعية أو هيئة أهلية أن تقوم برعاية المكفوفين على أسس خيرية فقط أو بمجرد محاولة المساعدة من باب الاحسان وكسب الثواب فالمكفوفين هم من المواطنين الذين اصيبوا بنقص حسي خلال الحمل أو منذ الطفولة أو نتيجة الحوادث وهذا القصور لا يمكن اعتباره عجز بل يجب أن ننظر الى المكفوف كمواطن له حقوقه وعليه واجباته وأن نقوم بمساعدته بتدريبه وتأهيله وتهيئة الفرص المناسبة له لاعادته الى المجتمع عضوا نافعا يشعر بكرامته ووجوده كمواطن صالح .

اننا في مجتمع ناهض ينشيء حياته على أسس من القوة والمعاني الانسانية الرفيعة ـ اننا سنعمل ولا شك ونبرهن للعالم عن مقدار وعينا الاجتماعي وعن درجة تفهمنا للمثل الانسانية ولن يكون للظلم الاجتماعي أثر بعد اليوم ـ اننا ستعاون ونعمل لبناء مستقبل أفضل لجميع الفئات الفئات المحرومة من النور انشاء الله والسلام .

أمينة سر الجمعية الاهلية لرعاية المكفوفين
فطمة الشلق

الجيران الى بيتها ، ثم حملوا الجثة ووضعوها في صحن الدار على الحصير الجديد الذي كان ابوه قد اشتراه قبل ان يموت بأيام .. انه يذكر هذا جيدا ..

وجلست نساء القرية حول الجسد الهامد المسجى يبكين ويصرخن بأصوات عالية ظن معها يومئذ أن قريته الصغيرة التي ترتاح هادئة قرب النهر قد ودعت هدوءها الى الأبد .

بكى كثيرا .. كا نيعرف ان موت انسان معناه ذهابه الى غير رجعة كان يحب اباه كثيرا بالرغم من انه ضربه ليلة موته على قفاه بشدة لأنه نسي صندله الأحمر معلقا في شجرة التوت التي قرب الغراف .

ورق له قلب الجارة السمينة نوفا ، فاحتضنته وأخرجت منديلا من جيب ثوبها راحت تمسح به الدموع المنثالة على خديه والمخاط الذي سال من فتحتي أنفه حتى بلل شفته العليا ..

أحس وهو يسند رأسه الى صدر الجارة نوفا براحة .. أحس بليونة ثديها تداعب اذنه ، وشيئا فشيئا تحولت الاصوات التي تجأر حوله الى طنين لذيذ بعث في جسده الخمار فراح في اغفاءة أفاق منها على صرخة مستطيلة اطلقتها امه عندما حملوا جثة ابيه الى المقبرة ..

وفي المساء ، عاد المشيعون الى البيت وجلسوا على البساط يأكلون .. لقد ذبحت امه لهم الجدي الوحيد الذي كانوا يمتلكونه واربع دجاجات ، وعندما خرج اهل القرية الى بيوتهم اغدقوا على روح ابيه آيات الرحمة ، وكانوا يقولون لأمه وهم يشيرون الى قامته الصغيرة التي وقفت الى جانبها : البركة في المحروس ، يكبر ويأخذ مكانه ..

وماتت أمه بعد ابيه بأيام قليلة قضتها جالسة بثوبها الاسود على الطراحة ، عيناها يابستان ، وصوتها مخنوق ، ومنديلها في قبضة يدها ، وكان ذلك آخر عهده بالقرية اذ نقله عمه توفيق الى المدينة يعيش في كنفه طفولته وأول سني شبابه ..

عشرون سنة كاملة مرت على رحيله عن القرية ، وها هو في طريقه اليها يزور مرابع حداثته فيها ، مع زوجته .

ان الصورة ، صورة امه التي ملأت عينيه وهي مرتكزة على خط الافق ، بدأت تتلاشى شيئا فشيئا .. بدأ شريط من الصور المتتابعة يظهر مكانها ويمر امام عينيه على امتداد خط الافق .. القرية .. بيوتها ذات الجدران الطينية المتآكلة .. دار حمو .. ودار فرج .. ودار حنيفة .. ودار المختار .. والمستنقع الذي كان يسبح فيه مع اترابه ويغسلون الاغنام .. والساحه ، وشجرة الدفلة التي كانوا يدقون أوراقها في الهاون ويجعلون من مائه قطرة للعيون .. والمقهى الذي يطل على الساحة ببابه الخشبي العريض حيث كان رجال القرية يتحلقون فيه اصيل كل يوم من ايام الصيف طيلة موسم الحصاد لينصتوا الى ابيه وهو يغني .. كان يردد لهم اغنية حزينة تعقد في جو المقهى غمامة من الكآبة تبدو على وجوه المنصتين اليه وهم يشربون اكواب الشاي الأسود ، ويدفع بعضهم حبات السبحات برتابة وشرود ..

ومرت صورة لصبي صغير يخرج في الصباح من بيت متواضع رابض بدعة في آخر الطرف الشرقي من القرية ، ثم يجتمع مع اترابه في الساحة فيجلسون على التراب ليلعبوا ببذر المشمش وبالكرات الزجاجية الصغيرة الملونة ، وتقوم بينهم معارك حول الربح والخسارة ، وقد يتشاتمون ويتضاربون ، ولكنهم سرعان ما يتراضون .

وتأتي ساعة الغداء فينهض الصبي وينفض عن ثيابه التراب ، ويسرع الى البيت راكضا ليجلس مع والديه حول مائدة الطعام يأكل بينهم وسرعة .. ولما كان والده يمنعه من الخروج وقت القيلولة الى الساحة ، فقد كان يحاول أن يشغل نفسه بأي شيء ، بترتيب علب الكبريت الفارغة ، فوق بعضها ، أو بعد الكمية التي يمتلكها من بذر المشمش والكرات الزجاجية ، وكثيرا ما كان يقضي ذلك الوقت بتسوية بعض المسامير المعوجة على صخرة بقبقاب امه الثقيل ليبيع هذه المسامير بعد أن يسويها الى ابي درويش الاسكافي مقابل (فتية) يشتري بها كمية من السكر المطعم من دكان ابي ابراهيم ..

« هل سأرى ابا درويش وابا ابراهيم .. وحنيفة .. والمختار ، ورفاقي سلمان وفؤاد ومحمد ونواف ، هل سأعرفهم عندما اراهم ؟. انهم قد تزوجوا بلا شك وانجبوا اطفالا ، فالزواج يكون في سن مبكرة بالقرية ، لقد تزوج حمدان ابن الارملة حنيفة وهو — كما قالوا يومئذ — لم يتعد العام السابع عشر من عمره .. انني اذكر هذا جيدا ..

ومراد .. نافخ الناي الاعمى الذي كانت الحانه تنوح بصفاء في ليالي الصيف ، هل سأراه على قيد الحياة .. لا ريب أن نايه قد صمت الآن .. انني اتذكر لحنه كلما سمعت عزفا على الناي من الراديو ..

« ونورا .. أجل نورا .. » ..

وانتصبت أمامه صورة لفتاة شعرها أصفر جميل ، وعيناها ضاحكتان ، وثيابها ملونة زاهية •• وكبرت الصورة فاذا هي صبية ناضجة ، شعرها كشلال من ذهب ، وعيناها يظللهما الكحل •• وثوبها زاه بديع يضيق على خصرها وينسدل على ردفيها بحرية حتى يلامس كاحلي قدميها ••

* * *

وتململت زوجته في رقدتها ، فانتفض في مكانه ، وانقطع شريط تصوراته •• كانت الطريق لا تزال ممتدة ، والسائق الكهل بدأ يصفر بشفتيه لحنا غير مفهوم •• وسأل السائق : كم بقي لنا من الوقت لنصل ؟•

ـ نصف ساعة ••

بدأت الدقائق تسير بطيئة ، وهو يستعجلها •• أحس أن نصف الساعة سيكون أكثر من ثلاثين دقيقة •• كان كمن يتحرق للقاء الوطن بعد نفي في جزيرة بعيدة ، على خلاف زوجته التي كانت قد تنبهت من غفوتها وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها راحت تتأمل فيها ما افسد السفر من رواء طلعتها ••

انتهت الدقيقة الخامسة بعد الثلاثين ، وبدأت معالم القرية تظهر•• هذا تل عليوي ، وهذا غويرات •• انه يعرف كل الاماكن ، وكل الاسماء •• ولكن ••• من أين جاء هذا الاطار المستطيل من اشجار الحور ؟ وهذه الاقنية ؟ وهذه الحقول ؟•• وهذه الطاحون الكبيرة ؟• وهذه الآلات التي تحرث الارض ، وهذه السيارات الشاحنة الكبيرة •• من أين كل هذا ؟•

وبدأت بيوت جديدة لا عهد له بها تزحم جانبي الطريق الذي تمر فيه السيارة ، وعبثا حاول أن يجد لها اصلا قديما •• ان المنطقة التي قامت فيها هذه البيوت كانت أرضا بورا في الماضي ••

وتقدمت السيارة الى الامام •• هذه دار حمو •• وهذه دار فرج قد جددت وطليت جدرانها بالكلس الابيض •• وهذه دار الارملة حنيفة ، ان امامها بعض الناس لم يعرف وجه واحد منهم •• وهذه دار المختار تبدو على المرتفع ، وهذا مكان دار والديه •• ما هذا ؟• لقد اصبح صيدلية • والمستنقع قد جفت مياهه •• وشجرة الدفلة لم يرها •• لا شك انها اقتلعت ••

ووصلت السيارة الساحة ، وتقاطر اليها الاطفال يحدقون فيها باعجاب وغبطة ، ثم جاء بعض الرجال يستطلعون ماذا يريد هذا الوافد الى قريتهم فجأة مع هذه السيدة الجميلة التي ترافقه ••

وسأل هو أول القادمين : أين المختار محمود ؟•

ـ • مات •• أعطاك عمره •• من زمان ••

ـ • ومن هو المختار الآن ؟•

ـ • احمد •• ابنه ••

ـ • أين أستطيع أن أراه ؟ •

ـ • في الربعة •• تفضل لادلك عليها ••

حاول عبثا ان يعرف الذي كلمه ، وان كان قد رأى شيئا يلتمع في عيني شاب آخر كاد ان يصيح به : انت نواف •• أليس كذلك ؟•

وهب المختار الشاب من مكانه يستقبل الضيوف ، ولم تمر لحظات على لقاء عينيه بعيني القادم حتى هجم عليه يحتضنه ويعانقه ••

وشاع الخبر في القرية : عارف •• ابن القرية •• ابن ابي عارف الذي كان يغني في المقهى منذ أكثر من عشرين سنة •• عاد الى القرية ومعه زوجته ••

وكانت ليلة حافلة نحرت فيها ذبيحة مسمنة ، والتف كل أهل القرية في (الربعة) حول عارف وزوجته يتذكرون ايام الماضي ويترحمون على والديه ، ثم راحوا يقصون عليه الاحداث التي مرت بالقرية منذ نزوحه عنها •• عددوا له الذين ماتوا والذين ولدوا والذين تزوجوا •• حكوا له قصة حملة الشنارات[1] الفرنسية التي هاجمت القرية ليلا تفتش عن ضابط فرنسي اسمه ميرساك زعم قائد حملة الشنارات انه قتل في القرية أثناء قيامه باحدى الدوريات •• وقصوا عليه كيف قتل عمران اثنين من جنود الفرنسيين السنغال لأنهما حاولا التحرش بابنة عمه صبيحة عندما كانت تملأ جرتها من البئر •• ثم حدثوه عن الاراضي التي جعلوها صالحة للزراعة واستوردوا لها الآلات لتعمل فيها •• ولم ينسوا ان يحدثوه عن شجرة الدفلة التي اقتلعت من جذورها ، وعن صيدلية سعيد التي قامت مكان دار والديه ، وعن مشروع تجفيف المستنقع ، وعن عازف الناي مراد الذي ذهب الى العاصمة وسمعوا عزفه من الراديو ، وعن المدرسة الجديدة

البقية على الصفحة « ٥٦ »

(١) الشنارات : سيارات حربية مصفحة وسريعة .

العاب نارية

ل – ريناتا اوردافو

تعريب : زكية الصوفي

ــ اسمعي لي درس الجغرافيا يا جدتي •

قالها فريديريكو الصغير ورمى بكتابه على ركبتي امرأة مسنة ، جالسة على باب الكوخ ، تشتغل صوفا •

وأحكمت الجدة وضع نظارتيها على عينيها ، وتناولت الكتاب •

ــ « تاريخ الحضارة منذ الحياة في الاكواخ ، حتى الحياة في المدن الكبيرة » •

هذا هو الفصل ، أليس كذلك ؟! •

ــ نعم يا جدة !

واستوى الولد راكبا على مقعد خشبي ، وأخذ يهز برجليه ••• كان غلاما قوي البنية أسمر اللون ، تظهر على ملامحه اليقظة والذكاء وابتدأ قائلا •

ــ الانسان بحاجة الى مأوى ليعيش ••• مأوى يزداد ترتيبا وتنسيقا كلما ازدادت سوية حضارة الجماعة •••

فهتفت الجدة مشجعة اياه :

ــ جيد مرحى لك يا بني !

ــ وتابع الولد حديثه على نغم اهتزازات رجليه : « المتوحشون يسكنون خيما فقيرة » •

ورفع رأسه وكأنما اعترضته فكرة مفاجئة وصاح :

ــ اذن نحن متوحشون يا جدة ؟!

وقبل أن تفوه الجدة بكلمة سمعت صوت حفيدتها تقول : انه على حق ! وبدت على الباب فتاة ممشوقة القوام تشبه فريديريكو الى حد كبير ، ولكنها تختلف عنه بزرقة عينيها وبياض لونها • وتدل حمرة وجنتيها على انها استيقظت لساعتها أو كأنها بكت طويلا •••

فقاطعتها الجدة متوسلة :

ــ ارجوك يا شيارا :

ــ ولكن معه كل الحق يا جدتي وانك تعرفين ذلك جيدا ••• ان التوحشين كانوا يعيشون أحسن منا بكثير • حقا اني لا استطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت ! سأرحل ! سأفر من هنا ان هذا الطراز من الحياة يفقد المرء كرامته كانسان ، يفقده لذة العمل ، يفقده حتى الرغبة في التفكير •

وخشيت الجدة أن يسمع الجيران مناقشتهما فدخلت البيت ودعت حفيدتها الى الدخول قائلة :

ــ ان وضعنا لا بأس به •• ولا بد من انه سيأتي يوم نغادر فيه ملجأنا الحقير هذا ولكن كل ذلك يحتاج الى صبر طويل ، فانك تعلمين جيدا كم ابذل من مساع للحصول على مسكن •

ــ نعم ! هذا اذا لم نمت قبل الحصول عليه •••

وحدقت المرأة بحفيدتها التي كانت تبدو على وجهها امارات القلق والالم وقالت :

ــ هل اصابك مكروه يا شيارا ؟ هل اعترتك بعض المتاعب ؟

ظلت الفتاة شاخصة ببصرها الى جدتها ثم قالت :

ــ أجل ! لقد تعرفت بشاب فأحبني وأحببته ••• ولكنني لا استطيع أن أحضره الى هنا ، الى هذا الكوخ ••• انني أخجل •••

أجابتها الجدة :

ــ يا للصفاقة : ستتعقد الامور فيما لو حاولت اخفاء الحقيقة عنه ، كوني صريحة مع صديقك فالحرب هي التي تركتنا دون مأوى واضطرتنا أن نعيش كما نحن الآن ، وأرغمتنا على اللجوء الى هذه الاكواخ اخبريه بأن والدك كان معلما ••• وان والدتك كانت مدرسة موسيقا ••• وانا ••

ــ وان في عائلتك اسقفا ! ولكن كل هذا لا يبدل شيئا في الموقف وسنبقى ذوي الملاجيء •

فاحمر وجه الجدة وصاحت بأنفة :

ــ ولكنك يا شيارا فتاة شريفة ••• لاشك انه يفهم ذلك جيدا اذا كان يحبك حقا •

رفعت شيارات كتفها مستنكرة •• ودخلت البيت المظلم الحزين ••• وبعد قليل خرجت وقد غيرت ثوبها ••• واتجهت نحو الطريق •••

ــ الى اللقاء ، يا جدة ••• اني ذاهبة الى المخزن ••• لا تدعي فريديريكو ••• يلعب مع أولاد الازقة •

ومرت بين صفوف البيت دون أن تلتفت ••• انها لا تريد

أن تحزن أو تغضب ... فحياة الضيق في هذه الملاجيء الحقيرة القذرة ، والجوع والبؤس ، وعدم تمكن سكان هذا الحي من ربح حياتهم بعمل شريف ، كل هذا كان يدفع رجال هذا الحي الى السرقة ، بينما أصبحت النساء ضحايا الشارع ... هؤلاء النسوة هن اللواتي كن ينعتن شيارا بالمداهنة ، وذات الوجهين وكانت تخشى كثيرا من أن يظن ارماندو ، عندما يعلم أين تقطن ، بأنها من هذه الفئة من النسوة ذات الحياة السهلة ، اللواتي يسكن الاكواخ ، أجل ! ان ارماند وهو فتى بسيط ومرح ولكن من يدري كيف يتقبل الأشياء .

واستعرضت شيارا في مخيلتها كيف تم تعارفهما ... كانت هيئته تدل على رعونة وخفة ومرح عندما دخل المخزن صائحا ...

ـ بسرعة طاقة من الزهر يا آنستي ! اعطني أجمل زهرات عندك ! لقد رزق المعلم أخيرا ولدا بعد سبع بنات .

ـ صحيح ! يا لها من حادثة !

وطفقت تحمل له طاقة جميلة من القرنفل الابيض .

ـ كم تود أن يبلغ ثمنها ! فثمن زهرة القرنفل الواحدة ثلاثون ليرة . ودون ان تفارق الابتسامة فمه ، أخذ يفتش في جيب ثوبه وأخرج منه رزمة من الاوراق البالية .

ـ انتظري لأرى كم أملك ... وأخذ يعد الاوراق الحمراء والخضراء بصوت مرتفع ، ثلاثمئة وخمسون ، تسعمئة لير في الكل ... هل يكفي هذا !؟

ـ بكل تأكيد . هذا يكفي لشراء طاقة رائعة .

وفجأة اختفت ابتسامة الشاب الذي أخذ يمعن النظر بالبائعة ويتبع بعينيه حركاتها وكأنه اكتشف كل مافي جمالها من سحر وانسجام .

ـ هل تعلمين بأنك شجاعة ؟! يهيأ لي انك جميلة أيضا غير انني لم ارك في المخزن قط .

انه لم يمض عليك زمن طويل هنا . أليس كذلك ؟!

ـ خمسة أشهر ! لم يؤثر هذا الاطراء على الشابة ... فقد اعتادت على الا يسرها شيء .

ـ وهتف الشاب قائلا وكأنه يلوم نفسه ... هل كان وحده ميلاد طفل لازما ؟

واستند الى المنضدة واستمر ينظر الى الصبية باعجاب مملوء بالشذاجة .

يا الهي ! ما هذه العيون الزرقاء ؟! هل سرقت قطعة من السماء لتلوينها بهذا اللون الازرق الجميل ؟!

ـ فدمدمت الصبية ، وهي تنسق الزهور وسط الاوراق الخضراء : يا للحماقة !

فلاذ ارماندو بالصمت عندما وجد بأن اطراءه لم يرق لفتاته .

وتناول الباقة التي قدمتها له ، وحملها منتصبة كما تحمل الشموع قائلا : عفوك يا آنستي .

ـ فأجابته وهي تضع الخيطان والمقص مكانها ! لا الومك ! فهذه ليست المرة الاولى التي اسمع فيها مثل هذه العبارات من الزبائن .

وتبعته بنظرها ، مبتسمة لطريقته المضحكة والمؤثرة معا في حمل الزهور . أما هو ، فقد كان يفكر ، وهو يخرج من المخزن ، بأن هذه المقابلة وان كانت عادية جدا ، يمكن أن تكون بداية لأمر كثير الاهمية .

وتكررت رؤية شيارا له ... لقد كان يمر أمام المخزن ، محدثا جلبة وضوضاء ، بدراجته النارية كان يحيها بيده تحية ود ... أما هي فلا تجيبه بأكثر من اطراقة خفيفة ، وابتسامة ساحرة ، تغير وجهها وتجعلها أشبه بالزهور التي كانت تحيط بها .

وفي ذات يوم سألتها صاحبة المخزن ، التي كانت تعصب رأسها دائما بسبب النزلات التي تعتريها ، عن هذا الشاب القليل التهذيب الذي يثير كل هذه الضجة ، عندما يمر أمام المخزن فأجابتها شيارا ، متظاهرة بعدم الاهتمام ، مبتهلة في سرها ، أن تأتي به الصدف اليها مرة أخرى : انه زبون ...

وذات مساء ، عند انصرافها الى البيت ، رأته واقفا قرب الباب ... لقد كان يرتدي قميصا أبيض وطقما رماديا .. وما أن رآها حتى تقدم منها قائلا :

ـ هل نستطيع أن نتكلم قليلا دون محذور .. كم أود أن أصف لك مشاعري !

وسارا معا في الشوارع الصاخبة ... الى أن قادتهما اقدامهما الى شارع مقفر اكتشفا فيه مقعدا تحت شجرة هرمة فجلسا عليه يستريحان ...

كان ارماندو يتكلم فتنحدر عباراته مضخمة وخالية من الانسجام والترتيب ، غير انها لصدقها وصراحتها جاءت حارة الى درجة استطاعت معها أن تصهر قلب الفتاة شيئا فشيئا .

ـ لا تسخري مني فهذا يؤلمني الى درجة ! خصوصا الآن وقد قررت أن أقص عليك كل ما يحمله قلبي ... لقد

ضقت بالحياة ، وضاقت بي ، أما الآن فاني أشعر بسرور لا عهد لي به ... فكأني حصلت على شيء كبير الاهمية ...
قالها وهو ينظر بحنان الى عينيها الجميلتين ... انها المرة الاولى التي أشعر فيها بمثل هذا الشعور ... انني صادفت دون شك فتيات قبلك ، ولكنني لم أكن أحس ازاءهن بما أحسسته به عند رؤيتك ... انك تختلفين عن غيرك .. استطيع أن أتكلم معك بصراحة ... اذ انك على صغرك تفهمين كل شيء ، وتجيدين الاصغاء كل الاجادة ...

ثم ضحك ضحكة عريضة كشفت عن اسنانه العاجية وأردف قائلا :

ـ كم أنا سعيد بقربك ! يخيل الي بأن وجودك بقربي جميل حتى ولو كان اجتماعنا من أجل شجار .

عندما رأت شيارا صدق طوية ارماندو ، وشدة اعجابه بها ، تأثرت تأثرا بالغا واطرقت برأسها لتحول دون تساقط الدموع التي أخذت تجول في مآقيها ... غير انها استطاعت أخيرا أن تتماسك وترفع رأسها بحركة جعلت وجهها قريبا جدا من وجه ارماندو الذي لم يتمالك من أن يعانقها ، نشوان من السعادة .. هاتفا !..

ـ انظري يا آنستي ، اننا اسعد من على الارض .

ـ صه ! فالناس يحيطون بنا !...

ـ ليعرف جميع الناس بأننا متحابان ... ان هذا يساعد الغير على أن يحبوا بعضهم بعضا . وان ...

ـ هلا انتهيت ؟!

ـ سيظننا الناس مجنونين وسيوقفوننا .

ـ ولكننا حقيقة مجنونان ! مجنونان من السعادة !..

ثم وقف وسحبها معه قائلا :

ـ الآن هيا نرى والدك !..

ـ ليس لي أب ولا أم !

ـ هل انت تعيشين وحدك ؟

ـ انني لست وحيدة تماما ، فلي أخ صغير وجدة ..

ـ عال ! لنذهب اليهما .

فصاحت :

ـ لا ! لا ! يجب أن اخبرهما قبل ذهابك ... والا .. فجأة ..... تستطيع أن ....

ـ فهمت ! الا انال اعجابهما ... ولكن لا تنسي بأنني عنيد وسأصل الى النهاية .

ـ حسنا جدا ! انك تعجبيني كما انت ! غير اني سانبئك عندما أرى الوقت ملائما !

ومرت الشهور دون أن تجرؤ شيارا على أن تأخذ ارماندو الى بيتها ، كانت في كل مرة تلفق اسبابا جديدة تثير اعتراضه في أغلب الاحيان لانها غير مقنعة .

ـ اسمحي لي ! ولكنني لا أفهم سبب عنادك ! فكل فتاة تكون سعيدة باعلام أهلها بما يحدث لها ! يخيل الي أحيانا بأنك تخبئين علي شيئا ، أو بأن حبك لي ابتدأ يفتر .

فأجابته وهي تجذبه الى صدرها :

ـ لا ! لا ! انني احبك من كل جوارحي ... ولكن هناك موانع كثيرة ! سأشرح لك كل شيء فيما بعد .

غير انها في هذه الأمسية قررت أخيرا الا ترجيء ايضاح الامور ... وليحدث ما يحدث فاذا كان ارماندو يحبها حقا فانه لا يعير مسألة الاكواخ أدنى أهمية .

بينما كان ينتظرها على مفترق الطرق ، حاول اشعال سيجارته ولكن دون جدوى .

ـ اف ! يا لها من ريح ؟!

ـ أجل بالحقيقة انها عاتية !

وما أن رآها حتى وضع علبة السجاير في جيبه وامسك بذراع الفتاة قائلا :

ـ لماذا أنت حزينة ! هل حدث لك شيء ؟!

ـ لا ابدا لا شيء !

واتجها صامتين نحو مقعدهما وكان الوقت ربيعا . الجو مضيء ، وارلوائح عطرية منعشة . وما أن جلست حتى قالت لارماندو : يجب أن أقول لك شيئا قلما يسرك ! فالتفت اليها الشاب بعنف ، وحملق في وجهها ، وأردف قائلا بلهجة لا تخلو من القسوة .

ـ كانت نفسي تحدثني بأن هناك سرا تخفينه علي . هيا تكلمي بصراحة !

ولكنها لم تستطع أن تتابع حديثها . فكان حملا ثقيلا لا تفهم كنهه يشل عزمها . ولم يكن ما يمنعها من الكلام ، خوفها من رد فعل ارماندو فحسب ، بل الى جانب ذلك كانت تشعر بحرارة وحسرة ، لما خصها به القدر من شدائد .

ولما طال صمتها ابتدرها ارماندو قائلا :

ها أنذا أصغي اليك ، وقرب منها وجهه المعبر الذي ارتسمت عليه امارات الشك والخوف .

ثم سألها هازلا :

ـ لا بد انك عرفت ما هو العمل الذي اتعاطاه !

فنظرت اليه بدهشة وقالت :

ــ ولكن ! ألست تعمل كبائع !؟

أجل أنا بائع ، فهذه مهنتي الرسمية . غير ان هذه المهنة وحدها لا تكفيني لأحيا حياة محترمة ، ولذا ترينني اتعاطى عملا آخر .

فتراجعت الفتاة وهي تحملق في وجه صاحبها الذي قال ضاحكا :

ــ لا تنظري الي هكذا كما تنظرين الى متهم ، فأنا لست سارقا محتالا ! ولكن انتن معشر النساء تخشين امورا تافهة انك خائفة .... أنا ...

فصاحت مقاطعة بصوت أنكره ...

ــ ما هو عملك اذن ؟ قل لي بحقك أسرع !

ــ اقتربي مني قليلا وسأقص عليك كل شيء ..

فطوقها بذراعه وقال لها ضاحكا ...

ــ لا بد انك رأيت الالعاب النارية الجميلة التي يسمونها « شموس » تلك التي تنثر وابلا فضيا جميلا وترمي أزاهير ملونة تنفتح في السماء ... وقلائد من الماس !؟ الالعاب النارية التي تخيف الناس بصوتها ، دون أن تسبب لي ضرر ولا تجلب الا الفرح والبهجة .

ولما فهمت شيارا ماذا يعني ... لم تستطع أن تحول دون تساقط دموعها ... كانت تبكي وتضحك معا ، بين ذراعي الشاب القويتين .

ــ تحضر العاب نارية يا حبيبي !؟

ــ هل تروقك هذه الالعاب يا شيارا ؟!

ــ أجل ! كثيرا !.. انها ستروق لفردريكو ، ولجدتي ولجميع الذين يقطنون هناك بقربنا والآن اصغ الي !

وتكلمت بهدوء .. وبحذر .. دون أن تحاول أن تبريء نفسها أو تعتذر ولما توقفت عن الكلام قال لها ارماندو ...

ــ هل انتهيت ؟!

ــ كم كان اعترافها بجميله كبيرا عند سماعها سؤاله هذا !

ثم قال لها وقد أخذ التأثر منه مأخذه :

ــ يا لها من ساذجة تلك التي انتخبتها لتكون زوجة لي .

وأدار بوجهه كي لا ترى الدموع التي أخذت تترقرق في مآقيه .

وفي ليلة زفافهما ... اقيم احتفال كبير في حي الاكواخ وفي السماء الزرقاء الداكنة ، كانت حزمات رائعة من النار الملونة تنفجر دون توقف ، وتكسب ما حولها جمالا ساحرا وتسكب في قلب البؤساء الذين يقطنون تلك الاكواخ ، الامل من أجل حياة أفضل .

نشيد ... في المقهى الحزين (بقية)

التي افتتحت في القرية وخرجت كثيرين من التلاميذ .

* * *

في الصباح .. خرج عارف وزوجته يتنزهان في ساحة القرية ، وبدأت صور حداثته تتجلى أمامه من جديد .. هنا كان يلعب مع اترابه ببذر المشمش وبالكرات الزجاجية الملونة .. هنا ضربه ابوه .. هناك كان يسير خلف امه وهي تحمل جرتها في طريقها الى البئر ..

وذهل عما حوله وهو ينقل طرفه شاردا في انحاء الساحة ولكن زوجته لكزته في مرفقه قائلة : ألا نرى المقهى الآن ؟.

وسارا الى المقهى الذي كانت ترتفع فيه اغنيات ابيه الحزينة ، وعندما اقتربا منه تناهت اليهما اصوات صاخبة تردد نشيدا وطنيا ..

كان المقهى قد أصبح مدرسة .

الزهرة على الفم

تعريب
جورج سالم

مسرحية في فصل واحد

الاشخاص :

الرجل ذو الزهرة

مرتاد وديع من مرتادي المقهى

ملاحظة : يرى النظارة في نهاية المشهد وفي الاماكن المشار اليها امرأة كالطيف تتقدم وكأنها تدفع رأسها الى الامام مرتين • ستكون ثيابها سوداء ، وعلى رأسها قبعة صغيرة قديمة مزدانة بريشات تعرف بريشات الحداد •

تبدو في الصدر أشجار شارع ومصابيح كهربائية تظهر من خلال الاوراق ، وعلى كلا الطرفين ترى المنازل الاخيرة من حي يفضي الى الشارع • يقوم بين المنازل في الجهة اليسرى مقهى قذر وقد رصفت طاولاته وكراسيه فوق الرصيف • وفي طرف المنزل الاخير القائم في زاوية الشارع مصباح آخر من الغاز المضيء •

بعد منتصف الليل بقليل يسمع من بعيد صوت مندولين•

حين يرفع الستار يبدو الرجل ذو الزهرة وهو جالس الى طاولة في المقهى يطيل التأمل في الشخص الوديع وقد جلس الى طاولة مجاورة يشرب شراب النعنع •

الرجل ذو الزهرة : آه ! لقد تساءلت عن ذلك ، لقد فاتك القطار اذا ، أنت أيها الرجل الوديع •

المرتاد : لقد تأخرت دقيقة واحدة ! وصلت الى المحططة ، ورأيته يجري أمام ناظري •

الرجل ذو الزهرة : لقد كدت تستطيع اللحاق به اذا ركضت•

المرتاد : نعم ••• هذا غباء • لو لم يكن معي كل هذه الصرر من كبيرة وصغيرة • لقد كنت محملا اكثر من حمار !
ولكن النساء كما تعلم يطلبن اليك مهمة من هنا ومهمة من هناك ، وهذه المهمات لا تنتهي • لقد استغرقت ثلاث دقائق ، وأنا انزل من السيارة ، لا لشيء الا لكئ أدخل في أصابعي عقد الصرر كلها في كل اصبع صرتان •

الرجل ذو الزهرة : كان منظرك جميلا لا شك • هل تدري ماذا كنت أفعل أنا ؟ كنت أدعها في السيارة•

المرتاد : وزوجي ! آه نعم ••• وبناتي ! وجميع صديقاتهن ! لقد كان من الممكن أن يصيبني شيء •••

الرجل ذو الزهرة : صرخات ، وصرير انسان ! ومن شأن ذلك أن يحمل الى نفسي متعة كبرى •

المرتاد : آه ، لعلك لا تعرف كيف تصبح النساء حين يمضين للاصطياف •

الرجل ذو الزهرة : آه ، نعم اعرف ذلك ، وأقوم به لانني اعرفه معرفة جيدة (صمت) انهن جميعا يزعمن بأنهن لن يحتجن الى شيء •

المرتاد : نعم « هذه الحاجة فقط » بل قد يقلن انهن انما مضين الى المصطاف توفيرا للنفقات ثم ما ان يصلن الى ناحية صغيرة في احدى الضواحي ولما كانت هذه الضاحية قبيحة وفقيرة وقذرة فان حمقهن يدفعهن الى تزيينها بأنواع البهرجة وبالزينة اللماعة ! آه ! سيدي العزيز ماذا تريد من النساء • ان التبرج عملهن • « عزيزي ، اذا جلت جولة في المدينة •• فانني بحاجة حقا الى هذا والى تلك ••• وتستطيع أيضا ، اذا لم يكن ذلك مما يزعجك كثيرا عزيزي ••• » اذا لم يكن يزعجك ذلك •• آه • وافعل ذلك ما دمت هناك ، وانت تمر ••• ولكن كيف تريدين يا عزيزتي أن احقق كل هذه الطلبات في ثلاث ساعات •
لا بأس فستستقل سيارة ••• المصيبة أنني لن أقيم هنا أكثر من ثلاث ساعات• لقد أتيت دون أن أحمل معي مفاتيح البيت •

الرجل ذو الزهرة : حسنا ، ولهذا السبب •••

المرتاد : تركت كل حملي ، الصرر الكبيرة والصغيرة في المستودع ، وذهبت اتناول طعام

العشاء في المطعم ومضيت بعد ذلك لكي انفس عن غضبي الى المسرح • ثم قلت لنفسي اذ خرجت : ماذا اصنع ؟ لقد انتصف الليل وسأركب في الساعة الرابعة أو قطار ينطلق ، وليس في نيتي أن أدفع اجرة غرفة في الفندق لكي انام فيها ثلاث ساعات فقط ، فأتيت الى هذا المقهى ، انني آمل الا يغلق أبوابه ؟

الرجل ذو الزهرة : كلا يا سيدي • انه لا يغلق أبوابه (صمت) وهل تركت كل صررك في المستودع ؟

المرتاد : نعم ، ولماذا تسألني عن ذلك ؟ أليست الصرر في مكان أمين ؟ لقد ربطت ربطا محكما •

الرجل ذو الزهرة : آه ، لا ، ما عنيت هذا ! (صمت) اشك في أن يكون ربطها محكما مع هذا الفن الخاص الذي يجيده البائعون في ربط السلع • (صمت) يا لايديهم ! يتناولون ورقة جميلة من الورق الكبير المزدوج ، حمراء صقيلة ، انها متعة للعيون وحدها وصقيلة حتى ليود المرء لو يضع عليها وجهه ليشعر بملمسها العذب ••• ثم يبسطونها على الطاولة ويضعون في وسطها القماش الخفيف برقة مجنحة وقد طوي أحسن الطوي • ثم يتناولون طرف الورقة الاسفل ويخفضونه ويتناولون الطرف الآخر وقد ثنوا نهايته بمهارة سريعة حبا بالجمال • ثم يعودون الى ثني المثلثين من كل جهة حيث يخفون طرفيهما • ثم يمدون أيديهم الى علبة الخيطان ويسحبون منها ما يكفي تماما لربط الصرة ثم يربطونها بسرعة حتى انك لا تجد الوقت لكي تتملى السرعة التي يقدمون لك فيها الصرة معقودة مهيأة لتحملها باصبعك •

المرتاد : يخيل الي يا سيدي انك لاحظت البائعين جيدا •

الرجل ذو الزهرة : سيدي العزيز ، باستطاعتي أن أمضي أمامهم أياما بكاملها • وانني قمين بأن أظل طوال ساعة أنظر الى مخزن من خلال واجهته الزجاجية • انني انس الزمن الذي يمر • اظن انني أصبحت ، بل اريد أن أكون هذا النسيج الحريري أو هذا القماش الموشى ، أو هذا الشريط الاحمر أو الازرق الذي تلفه البائعات الفتيات ، بعد أن يقسنه بالمتر ، حول ابهامهن والخنصر ، وذلك قبل أن يلففنه على الورق ــ لقد رأيت انت كيف يفعلن ذلك ــ (صمت) انظر الى المشتري أو المشترية وقد خرج من المخزن يحمل الصرة في اصبعه أو في يده أو تحت ابطه فاتابعه بعيني حتى يختفي وأتخيل •• وأتخيل •• كم استطيع أن أتخيل أشياء ليست لك اية فكرة عنها • (صمت ، ثم بكآبة كان يحدث نفسه) ولكن ذلك كله عذب بالنسبة الي !

المرتاد : هذا عذب بالنسبة اليك ، فما العذوبة التي تعني ؟

الرجل ذو الزهرة : العذوبة في أن اتعلق بالحياة عن طريق الخيال كما أفعل • ان شأني كشأن نبتة تتسلق قضبان حاجز حديدي • (صمت) آه ! وفي أن أدع مخيلتي هادئة ، لدقيقة واحدة ، أشارك بفضلها في حياة الآخرين •••• ولكن لا في حياة الناس الذين اعرفهم •• لا ، لا • فأنا لا أستطيع ذلك اذ انني أشعر تجاههم بالملال بل بالترف أيضا • ولكن ان اشارك في حياة الناس المجهولين الذين تستطيع مخيلتي أن تحوم حولهم بحرية ، لا على سبيل المصادفة ، بل على العكس في وعي تام لأتفه مشابهة أكتشفها في فلان أو فلان • ليتك تعلم كم تعمل مخيلتي وكيف تعمل انني أرى منزل هذا الرجل وذاك فأعيش فيه • اشعر حقا انني أعيش فيه ، حتى

لأشتنشق رائحته . أنت تعرف هـذه الرائحة الخاصة التي تشيع في كل منزل في منزلك وفي منزلي . ولكنك لاتميزها في منزلك لأنها رائحة حيـاتك نفسها . هل أدركت ذلك ؟ أرى انك تفهم ما أعني.

المـــرتاد : نعم ، لأنني أظن انك تشعر بسرور اذ تستطيع أن تتخيل على هذا النحو كثيرا من الاشياء .

الرجل ذو الزهرة : (بملل وبعـد فترة تفكير) أأنا أشعر بسرور ؟

المـــرتاد : أتخيل ذلك على الاقل .

الرجل ذو الزهرة : قل لي ، هل استشرت في حيـاتك بعض الاطباء المشهورين ؟

المـــرتاد : كلا ، ولم ذلك ؟ فأنا لست مريضا .

الرجل ذو الزهرة : لاتفزع ، انما أسـألك ذلك لأعرف هل رأيت في حياتك صالة في عيادة أحد الاطباء المشهورين حيث ينتظر المرضى دورهم في المعـاينة .

المـــرتاد : آه ! نعم . لقد حدث لي أن رافقت احدى بناتي ، وقد كانت مصابة بمرض عصبي .

الرجل ذو الزهرة : حسنا ، لا اريد أن أعرف شيئا .. اريد أن أقول ان هذه الصالات ... (صمت) هل لاحظت ؟ مقاعد من القماش القاتم على النمط القديم ، وكراسي محشوة ، غير متلاحمة غالبـــا . ولكن الارائك الصغيرة ، والخلاصة ليست هـذه الا اشياء اشتريت مصادفة ووضعت هنـاك للمرضى . انها لا تشكل جزءا من بيت الطبيب الحقيقي . ان للطبيب ولأصدقاء زوجه صالة اخـرى مترفة وجميـلة ، تخالف هذه الصالة التي يكفيها هـذا الترتيب المناسب غير المتكلف . اريد أن أعلى هل امعنت النظـر ، حين رافقت ابنتك ، في الاريكة أو الـكرسي حيث جلست تنتظر .

المـــرتاد : أنا ؟ الحقيقة أنني لم أنظر .

الرجل ذو الزهرة : طبعـا ، لأنك لم تكن مريضا (صمت) صحيح أن المرضى أيضا لا يبالون بذلك دائما ، لأنهم يكونون في شغل بمرضهم وحده . (صمت) ومع ذلك كم مـرة بقي بعضهم هناك ينظرون الى اصابعهم ترسم اشارات لا معنى لها فوق مسند الاريكة حيث يجلسون . انهم يفكرون ولا يرون شيئـا . (صمت) . ولكن يا لغرابة الاثر الذي تتركه في نفسك ، وأنت تخرج من عنـد الطبيب وتجتاز الصـالة ، رؤية الـكرسي الذي كنت تجلس عليـه في انتظار حكم الطبيب ، ثم رؤيته مرة ثانية وقد شغله مـريض آخر هو ومرضه الخفي أو أن تراه هناك فارغا لا يشعر بشيء بل ينتظر أن يجلس عليه أحد ما . (صمت) ولكن مـاذا ترانا نقول ؟ آه ! ... نعم لذة التخيل. لـماذا فكرت توا بكرسي من هـذه الكراسي في صالة الانتظار عند الطبيب؟

المـــرتاد : نعم .. في الواقع.

المـــرتاد : نعم .. في الواقع .

الرجل ذو الزهرة : ألا ترى العـلاقة ؟ وأنا كذلك لا اراها (صمت) ذلك بأن بعض الصور المتداعية التي تبدو بعيدة هي في الواقع خـاصة بكل منـا ومحددة بأسباب وبتجارب خاصة حتى اننا لا يمكن أن تتفاهم ان لم تتجنب الاشارة اليها أثناء الكلام . ولا شيء ابعـد عن المنطق من هـذه التلميحات (صمت) ولـكن قد تكون العلاقة هي التالية : تأمل : هل تجد هذه الكراسي لذة في معـرفة المريض الذي يجلس هنا وهو ينتظر ان يفحصه الطبيب؟ أو معرفة أي ألم يكمن فيه ؟ والى أين يمضي ؟ وماذا يفعل بعد المعاينة ؟ انهـا لا تجد اية لذة ، وأنا مثلها لا اجـد من لذة ! يأتي الى هـذا المـكان كثير من المرتادين . انهم هنا ، ككراسي مسكينة معدة للجلوس عليهـا ، وان عملي من

النوع نفسه • فمرة يشغلني س من الناس واخرى ع • وانت تشغلني في هذه الآونة • وثق انني لا اجد أية لذة في تأخرك عن موعد القطار • أو في ان اسرتك تنتظرك في الريف ، وهي تتخيل ان اسوأ المضايقات قد اصابتك •

المرتاد : آه ! عدد كبير من المضايقات كما تعلم •

الرجل ذو الزهرة : احمد الله على انها ليست الا مضايقات (صمت) سيدي العزيز ، هناك اشخاص عندهم ما هو أكثر من المضايقات • (صمت) قلت لك انني بحاجة الى أن اتعلق بخيالي بحياة الآخرين ، ولكن هكذا ، دون لذة ، ودون ان افيد منها على الاخص •• بل على العكس لكي اشعر بثقلها ، ولكي أحكم عليها بأني سخيفة وباطلة ، حتى لينبغي الا يهتم الانسان باتمامها • (بغضب قاتم) واليك ما يجب أن أظهره ! وذلك ببراهين وامثلة متتابعة تقدمها نحن لأنفسنا بغيظ لا يهدأ لأننا ، سيدي العزيز ، لا نعرف حق العرفة كيف يتكون طعم الحياة ولكننا نشعر به في خلوتنا • وطعم الحياة هذا لا سبيل الى ارضائه أبد الدهر • ولا يمكنه أن يرتوي ، لأن الحياة ، حين تعيشها ، تكون نهمة الى ذاتها ، فلا تترك لك فسحة من الوقت لتتذوقها • ان عذوبتها تلبث في الماضي ولا يبقى لك منها الا الذكرى • وان طعم الذكريات يأتينا من هناك ، من هذه الذكريات التي تدعنا معلقين ، ولكن بأي شيء ؟ بالسخف ••• بهذه المضايقات • واكاد أقول بهذه الآلام ، نعم سيدي ، فمن يدري أي مذاق سيكون لهذه الدموع في مدى اربع او خمس أو عشر سنوات والحياة يا سيدي ، ان مجرد التفكير بفقدها ، وخاصة حين يعلم المرء انها مشكلة ايام ••• (في هذه اللحظة تظهر المرأة المتشحة بالسواد مترصدة من الناحية اليمنى) واليك هذا ، هل ترى هناك ، هناك في طرف الشارع ، هل ترى شبح المرأة هذا ؟ انظر ، لقد اختفت الآن !

المرتاد : كيف ، ومن كانت ؟

الرجل ذو الزهرة : لم ترها فقد اختفت •

المرتاد : أامرأة هي ؟

الرجل ذو الزهرة : نعم انها زوجي •

المرتاد : آه زوجك :

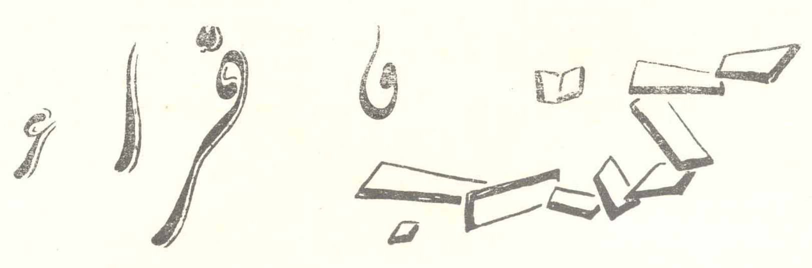
الرجل ذو الزهرة : (بعد صمت) : انها تراقبني من بعيد ، ثق انني اشتهي لو امضي فاحطمها بركلات من رجلي ، ولكني لن أفيد شيئا من ذلك ، فهي تشبه كلبا من تلك الكلاب التائهة التي تلج في اندفاعها وتتعلق بأقدامك كلما أمعنت في ضربها • (صمت) انك لا تستطيع أن تتخيل الالم الذي تعانيه هذه المرأة في سبيلي فهي لا تأكل البتة ولا تنام مطلقا • انها تلاحقني ليل نهار هكذا على قيد خطوات وهي لا تكاد تتفرغ الا لمسح قبعتها هذه ، وتنظيف ثيابها • ولكن لا ، ليس لها مظهر امرأة بل ان لها مظهر اثمال بالية ، وان شعرها قد تغبر الى الابد ••• مع انها لم تكد تشارف الرابعة والثلاثين من عمرها (صمت) انها تثير في غضبا لا يمكنك تخيله فاقبض عليها احيانا واصرخ في وجهها وأنا اهزها هزا : أيتها البلهاء ! الا انها تتقبل كل شيء ، وتظل تنظر الي بعينين اقسم لك بأنهما يثيران في يدي رغبة وحشية في قتلها • ثم لا يحدث شيء البتة • اذ تنتظر أن ابتعد لتعود الى متابعتي على قيد خطوات • (تعود المرأة من جديد لتمد رأسها من زاوية الشارع) ها هي ذي ، هل تراها وهي تنحني ؟

المرتاد : يا للمرأة المسكينة !

الرجل ذو الزهرة : ولكن كيف تسميها امرأة مسكينة ؟ هل تفهم ما أقول ؟ انهـا تود أن أبقى في البيت هـادئا ساكنا . وادخل خفية في صميم حبها الرقيق الجنوني كله . وأن أتمتع بالنظام التام الذي يسود الحجرة كلهـا ، وبنظافة المفروشات ، وان أتمتع بهذا الصمت الجامد ، بهـذا الصمت الجليدي الذي كانت تدل عليه عنـدي تكتكة الساعة في غرفة الطعام . هـذا ما تريده ! انني أسألك لكي أجعلك تفهم العبث فهما عميقا .. ماذا أقول ، العبث وقسوة رغائبها المميتة ، انني أسألك : أتعتقـد ان بيوت افيزانو ومسينا كانت تظل ساكنة تحت ضوء القمر ، مرصوفة على شكل خيط طوال الشوارع والساحات خاضعة لنظام البـلدية المنظم لو انهـا ادركت ان زلزال الارض سيقلبها . لقد كان من شأن البيوت أن تنجو بنفسهـا وهي من حجر وطين . فهـل يدور في خـلدك ان سـكان افيزانو ومسينـا يستطيعون ، لو كانوا على ثقة بأنهـم سيموتون في مـدى ساعات قليلة ، ان يخلعوا ثيابهم قبل أن يضجعوا في اسرتهم هادئين ، ثم يطووها ويضعوا احذيتهم قرب البـاب ويلتفوا بأغطيتهم متذوقين برودة الشراشف النظيفة اذا كانوا على ثقة بأنهم مائتون خـلال ساعات قليلة ، هل تجد ذلك ممكنا ؟

المـــرتاد : ولكن ربما كانت زوجك ..

الرجل ذو الزهرة : انتظر قليـلا ! ليت الموت ، يا سيدي ، يشبه حشرة من هذه الحشرات الغريبة المقرفة التي يجدها المرء فوقه فجأة .. تمر أنت في الطريق ويمر آخر بعنف فيوقفك ويقول لك بحذر واصبعاه ممدودتان : « عفوا هل تسمح ؟ سيـدي المبجل ان المـوت فوقك » ثم يلتقطـه باصبعيـه الممـدودتين ويرميه .. سيكون ذلك أمـرا رائعا ، ولكن الموت لا يشبه في شيء حشرة من هذه الحشرات المستكرهة هنـاك كثير من اولئك النـاس الذين يروحون ويغدون مطمئنين لا هم لهم ، وقد يكون الموت فوقهم وليس من يراه وهم يفكرون بهدوء ماذا هم فاعلون غدا وبعد غد . فأنا مثـلا (ينهض) سيدي العزيز ، انظر واقترب (ينهضه ويقترب به من المصباح) اقترب من هذا المصباح فسأريك شيئا ما . انظر هنـاك تحت الشارب ، هذه البنفسجة الجميلة فوق الشفة ؟ هل تعرف ماذا يسميها الاطباء ؟ آه انه اسم شديد العذوبة .. عـذب كالسكر « ابيتليوما ... » الفظ الاسم وستشعر بعذوبته ابيتليوما ... الموت هل فهمت ذلك ؟ لقد مر علي ووضع لي هذه الزهرة على الفم « خـذ دائما من هذا يا صديقي ، وسأمر عليك في مدى ثمانية أو عشرة شهور ... » (صمت) والآن قل لي اذا كنت أتستطيع أن أبقى في البيت كما تريد مني هذه المرأة المسكينة هادئا ومسالما ، وهذه الزهرة على فمي ! (صمت) انني اصـرخ في وجههـا : « الا تريدين أن أقبلك ؟ نعم قبلني ! » هل تعرف مـاذا فعلت ؟ لقـد خدشت نفسها بدبوس في الاسبوع الفائت ، ثم أخذت رأسي بين يديها لتقبلني .. لأنها تزعم انها تريد أن تموت معي . (صمت) انها حمقاء . (ثم بغضب) انت تعتقد أنني لا اريد البقـاء في المنزل . يجب علي أن أمضي لأرى الحوانيت وأتأمل من خلال الزجاج مهارة البائعين ، لأنك تعرف انني اذا تركت رأسي فارغا لحظة فانني أستطيع أن أتخيل انني اجهـزت على حيـاة انسان بكاملها ، فأتنـاول مسدسي وأقتل شخصا مثلك فاته القطار (يضحك) ولكن لاتخش شيئا ، سيدي



رأي سعيد عقل

في كتاب « اوراق جريحة »

ننشر فيما يلي الكلمة لتي علق بها الشاعر الكبير لاستاذ سعيد عقل في الزميلة « الصياد » على كتاب « اوراق جريحة » للاستاذ الياس الفاضل :

حمل الينا البريد في عشرات ما يحمل كل اسبوع ، كتاب شعر من دمشق •

انه لالياس الفاضل

شاعر لا نعرفه ولم نقرأ له سوى هذا الديوان •

« أوراق جريحة » بدأنا ، كعادتنا مع الكتب التي تردنا نقرأ منه مقطوعة أو اثنتين لنرى ما اذا كان ينبغي أن تستمر فاذا بنا لا نتركه الا وقد اتينا عليه •

انه من الشعر المنثور ••• ولكنه في منتهى الغنى ، في منتهى الجمال •

كيف لا نحبه هذا العصفور الازرق ؟ كيف لانطير فرحا بخلاق في هذا الوزن ؟••

لن يصيبنا المرض ونروح نرد فنه الى مدارس بعينها من الغرب • انه شأن الباحثين الفقراء لايتصورون أن جديدا يمكن أن يولد تحت سمائهم •

ومقارنة أي شيء بأي شيء ممكنة ولو بين شجرة وصاعقة • لا ، والياس الفاضل ذو لذعة من رفعة المستوى ، وبثه حكاية قلب تسكر وتشيل بك على جناحين لتأخذك الى آخر الارض •

ويعمق فكرا بقدر ما يظل بلوريا ، ويده أبدا على سر أسرار الفن ، وعالمه عالم من جن مع انه لم يتفوه بالكلمة في كل كتابه •

« اوراق جريحة » قصائد غزل بين أعذب ما قرأنا لا في دمشق بل العالم •

انها تذهل الفتاة ذات النيسانات الستة عشر كما ترضي المفكر الذي يطمح الى التفلسف على الحياة ، منذ هي شغور وتأهب الى انسحار ، الى كونها اندفاعا صوب مجهول ومفاتن ، فاقتتالا لأجل بقاء في البهاء : فسقوطا في الخيبة ، فعودة الى القبض على الحياة المتفلتة من بين الاصابين ، ثم أخيرا اقتناعا بذكريات تنعش ولو على شفا القبر •

الشاعر النضر القوي الطريف الذي وفد الينا كتابه من على ضفاف بردى ، الا ليجد هنا في لبنان قلبا يحبه وسع الحب ويعجب به بدون تحفظ •

سعيد عقل

العزيز ، فأنا أمزح (صمت) ها انتذا ذاهب (صمت) بل الافضل أن أقتل •• (صمت) ولكن ثمة الآن فاصولياء •• كيف تراك تأكلها ؟•• أتأكلها مع غلافها أليس كذلك ؟ تفلقها الى نصفين ثم تضغط عليها بالاصبعين كأنها شفتان عسليتان ••• آه يا للعزوبة ! (يضحك ـ صمت) احتراماتي لزوجك ولبناتك (صمت) انني اتخيلهن مرتديات الثياب البيض والزرق في ظلال حقل أخضر ••• (صمت) وحين تصل ، صباح الغد ، قم بعمل من أجلي • انني اتخيل أن القرية الصغيرة ستكون بعيدة عن المحطة وتستطيع أن تجتاز المسافة عند الفجر سيرا على الاقدام • عليك أن تعد من أجلي أوراق أول باقة من العشب تلقاها وستكون ايامي بعدد الاوراق التي فيها (صمت) ولكنني أضرع اليك أن تختار باقة كبيرة ! (يضحك) طاب مساؤك سيدي العزيز •

يسير وفمه مغلق وهو يترنم بلحن المندولين الذي يسمع صوته من بعيد ، قرب الجهة اليمنى ، ولكنه ينحرف في لحظة ، بينما زوجه واقفة هناك تنتظره ويختفي في الجهة الاخرى • تشيعه نظرات الرتاد المسالم بدهشة •

الخوف والقلق والغموض..

مقومات القرن العشرين

بقلم : أحمد سويدان

الامواج تتقلب ، والزبد يعلو مياه المحيطات ، والرمال تستقبل المد والجزر ، والانسان ضارب في شعاب الارض يسير ويسير ••• يحاول ويحاول •

كل شيء على حاله منذ الازل••• لم يتغير سوى صوت الانسان •• انه تحول الى صراخ وهرير وعواء •

كانت الطبيعة تخيفه بغموض ولكنه امتطى متنها وذلل صعابها فلم يعد يختلج فرقا من سكون الليل عبر الغابات ولم تعد المحيطات ترهبه ولا الابعاد •••ركب وجاب الاصقاع وهو في طريقه الآن الى الفضاء حول كل شيء الى قدره وفعاليه وبنى حضارته على هذه القدرة وتلك الفعالية ••• اذن ما نتيجة الحياة •••؟

هل بقي هناك شيء يخيف هذا الانسان بعد أن توصل وتوصل وحقق وحقق ؟

ان نتيجة الحياة لا يستطيع أحد أن يتكهن ويجزم ما هي •••• فالغموض يكتنف هذا السؤال والغموض الذي يهيمن على شيء دائما وأبدا يكون مبعث قلق وخوف لهذا الانسان •

اذ يقول : لماذا يكون غامضا شيئا ما ••• أنا الانسان رائد الحياة يبقى أمامي شيئا غامضا ؟ ان الغموض للانسان تحد له ولمقدرته ومبعث خوف لروحه انه يخاف لأنه يجهل النهاية لكل هذه القدرة التي تسامت وغزت وأذلت له الكثير والكثير •

وهناك شيء آخر ••• فمقدار ما يجهل الانسان نهاية فعالياته بقدر ما يجهل نفسه •• هذه النفس التي اكتشفت ظواهر كثيرة ونتج عن الظواهر هذه •• أشياء لم تكن بالحسبان ولكنها لم تكتشف نفسها ان النفس الانسانية بغموضها تخيف وغموضها متصل بغموض النتيجة الحتمية لعالمنا هذا ••

غموض النفس جزء من غموض الانهاية •

صخور الشاطيء تستقبل الامواج المزبدة والجبال تنتصب شامخة ••• تتكسر الرياح على قسماتها الصارمة الصحراء تضج برمالها والغابات يرين عليها السكون وترقص الرهبة بين أشجارها •

كل شيء منذ القديم •• القديم على حاله الا الانسان • وما تطور الانسان الا نتيجة فضوله وحركته والى أين وصل ••؟

لقد بقيت الصخرة مسمرة في مكانها •• والوادي مطرق في سبحة أبدية •• أما الانسان فقد سار وركب انه بنى الحضارات وصنع التاريخ لكنه اليوم فقد وصل الى الخوف من نفسه والقلق على مصيره انه لا يعرف أين يمشي وأي خطوة تحقق ارادته •• انه حائر مشوش لأنه شعر بأن نفسه ليس زمامها طوعه •

ان عصرنا عصر القلق والغموض والخوف يتمثل ذلك بكل انتاج العقل •• في الاختراع •• في الفلسفة في الادب في الفن ••

ما الوجودية الا فلسفة أنتجها القلق والخوف ••• انها حشرجة المنازع •• تلك الحشرجة القوية لكن الهمود بعدها سوف يأتي • لقد نظر الانسان في كل الجهات ولكنه لم ينظر الى نفسه أبدا •

الوجودية هذه الحرية الامتناهية وهذه الفردية المخيفة• خلقت وحيدا أيها الانسان وحرا على كوكبك الارضي فأنت تعمل وتتحمل نتيجة أعمالك • لا أحد مسؤول عنك •• لماذا ؟ لأنك حر وحريتك ليس لها حدود أو نهاية • هكذا تنادي الوجودية وهكذا جوهرها يصرخ •

أسمعت •• صراخ الانسان في وجه الاله •• في رواية الذباب ــ لسارتر ــ حيث يقول له :

ــ أنت اله وأنا حر •

هل نصدق ذلك •• اننا نقرأ هذه الافكار فنستشف من ورائها القلق المنبعث من الغموض الذي يلف المجهول الابدي • لو كان الانسان حرا لاستطاع أن ينفذ كل رغباته •• مثلا خطر له أن يطير الى القمر ليقضي هناك على صفحته الفضية ليلة جميلة ثم يهبط بمقدرته متى أراد •• فمن أين له تلك الارادة التي يستطيع بها بلوغ القمر كما يتخطى المرء من ساحة الدار الى عتبة البيت من أين لنا الحرية التي ينادي بها سارتر ونحن مشدودون بالاغلال منذ أقدم العهود أليس ندائها نداء التفرج المنبعث من القلق •• هذا هو آخر سهم من سهام الفلسفة حاليا ••• لسنا ندري ما مستقبلها •؟

ولننظر الى عالم الاختراع ••• لم يخلف غير الهلع

والخوف وان نتيجته تلمسها في التكهن بفناء العالم فيما اذا اصطدم في حرب عالمية ثالثة .

وكذلك عالم الفن .. وصل لدرجات جنونية هذه هي السرياليه بشطحاتها المتشابكة .. الرأس بين الارجل .. الاذن عند ظفر الرجل .. خطوطها المتداخلة .. ريشتها المرتعشة قلق كلها وزعيمها ـ بيكاسيو ـ بقلقه الفني يناطح ـ سارتر ـ بقلقه الفلسفي . الفن ـ موسيقى ونحتا ورسما . يلتقي مع الفلسفة في القلق والخوف والغموض . ان العلم يكاد يعصف بالعقل ويسير به للجنون .. وربما عصف .

وان الادب عن هذه المخاوف يعبر .. ان ـ برتراندرسل ـ في قصته ـ الشيطان على الارض ـ يخلق الرعب والخوف والشك في كل من يقرأها .. قصة لا تصدق قرأتها منذ سنتين .. ان وضع العالم المخوف هو الذي يمليها ..

الخوف .. القلق .. الغموض .. نعم هذه الاقطاب الثلاثة هي التي تدفع الانسان وراء شيء فينقب عنه ولكنه لا يجده .. ويعبر ولكنه يجد نفسه قاصرا عن التعبير عن ذلك الشيء الذي يشعر به بلقطات مشاعره الغامضة ولكنه لا يعرفه .

سيظل العالم يبحث عن حقيقة ذاته الى ما لا نهاية .

دمشق : أحمد سويدان

فهرس العدد